

رواية

قمر الشتاء

جار النبي الحلو





المجلس الأعلى للثقافة

المشرف العام: د. أحمد مجاهد

سكرتير التحرير الفني: هشام نوار

رواية

قمر الشتاء

جار النبي الحلو

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣

المجلس الأعلى للثقافة

١ شارع الجبلاية، دار الأوبرا، القاهرة

الرقم البريدي: ١١٢١١

تليفون: ٧٣٥٢٣٩٦

فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

بريد إلكتروني:
egypt council @ yahoo. com

رقم الإيداع: ٣٢٢٤ / ٢٠٠٣

التصميم والإخراج الفنان

عدلي رزق الله

الأميرية Amiria

اهداءات ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة



إبداعات التفرغ

[١٣]

رواية

قمر الشتاء

جار النبى الحلو

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : قمر الشتاء

اسم المؤلف : جار النبى الحلو

الطبعة الأولى القاهرة ٢٠٠٣

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House. El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E. Mail :** asfour @ onebox. com

الجنى يخلع حذائى

وبيديه يدعك رجلى...

اليوم قائظ، وحديقة بيتنا الصغيرة هجرتها الفراشات والزهيرات وقطرات الندى، لجحور النمل أمكنة. وها قد سقطت آخر زهرة في شجرة الرمان في حجري، بينما شجرة النبق تتوحش في الأعالي تنفر من الصهد، وفرّ الجني منها. اقترب الكلب مني، وأقعى، وأخذ يلهث. أريد أن ينساني العالم، أتيبس حجرًا، لا تلمني في قسوتي على نفسي. تكاثر النمل مشغولاً بجناح صرصور. مرت «زينب» النوبية، ابتسمت فبانت أسنانها البيضاء، مطت شفتيها وداعبتني بتكشيرة ولعّبت حواجبها ثم رمتني بثمرة جميز وخذلتني يدي في إمساكها. ومرقت «زينب» النوبية، وظل الباب الخشبي مفتوحًا، ومتعلقًا به ربما تأتي النسمة المستحيلة.

ـ الشاي.

تمتمت «إفراج» بهمس، شعرها مبتل بماء، مدت يدها، وابتسامة على جانب الفم الدقيق، لاحظتُ ارتعاشة اليد، أخذتُ الكوب، تظن أني مازلت مريضًا .

قرفصت بجواري، صمتت طويلاً ثم بصوت متحشرج سألت:

ـ متعب؟!

هززت رأسي نفيًا، اتسعت ابتسامتها وركنت بظهرها للحائط. دعكت رأسي بيدي اليسرى، أجاهد ثقلاً يحط بجسدي. اغتصبت ابتسامة وهي تقول:

ـ خفتُ عليك....

سكتت. ثم أردفت كأنها تذكرني:

ـ بالأمس.

لا أعرف. كنت أقرأ في كتاب صيني ضخم ما زال يبحث في مستقبل به دهشة وصفاء واستحالة، فيما كل شيء في بيتنا في طريقه للهدم، مع أنهم قرروا أن كل شيء تم إنقاذه ووضعوا النهاية السعيدة لصراعنا مع الصهاينة. أقرأ في الكتاب فأرى المصانع والعمال واللافتات وحق الإضراب وحق الطعام وحق الفرح العالم البهيج يضحك ويخرج لي لسانه. الكتاب

الضخم لا يرحمنى ولا يستوعبنى، بينى وبينه المسافات والخرافات. تصايحوا فى التلفاز والراديو ووكالات الأنباء والصحافة أنهم أنجزوا كل شيء والرخاء سيعم، كلنا سنلبس من وراء البحار أفخم المنسوجات، ونستورد أفخم الدجاجات المحمرة توًا، وننفث أبدع السجائر ويصبح «البايب» لكل شخص بالغ محمود السيرة حسن السمعة، وتطل علينا الصدور الشهية للنساء ليس فى وضع تهدل وانكسار إنما مشدودة قوية مثيرة تلمسنا فنتشظى فى الأحمر والوردى.

ـ ضربت بيدى الكتاب الضخم.

اندلق عمرى على أرض ناشفة. نظرت فى المرآة للمرة العاشرة، وبيدى دعكت جبهتى وشعرى فالألم قاس، والمطارق نزلت من الأعلام الحمراء تدق رأسى بعنف وغبشت نجيمات قليلة كانت متألقة فى زمن فات.

وجدتنى مرميًا على الأرض يدوسون فوقى ويعبرون، يغنون أغنية بلا ملامح، يدوسون، بأحذية وحفاة، تغيرت ألوان الرايات وأغلفة الكتب، عبرونى، إنهم فى طريقهم للموانئ البعيدة «سيلعبون بالنوارس والنقود الخضراء والسيارات» هكذا قال لى خالى بعد أن أطاح «البلدوزر» بجحره ليقومْ مكانه «سوبر ماركت» يتلألأ زجاجه وتليفونه وتليفزيونه وأكياسه الملونة. فقال خالى ما قال. وأنا كنت مرميًا على أرض حجرتى الوحيدة فوق السطح.

تشبثت يداى بفقرة من عظام ناقة، يكاد تشكيلها يوحى بناقة ستهم بالنهوض. وضعتها تحفة ورقية. حين أخذتها من المجزر وفرحت بها ضحك الجزارون منى ساخرين، لكننى نظفتها ولمعتها. كنت أرجو أن نتآلف لكن فقرة الناقة تلك أبدًا ما وهبتنى سحر العين الفرعونية الخلابة. أردت أن أعرف أى سخف جعلنى أضعها تحفة ورقية شددتها – هل كان بعنف؟ـ فانهالت فوق رأسى الكتب والمجلات.

أطحت بكل الكتب من فوق كل الرفوف وحين نظرت فى المرآة أفزعنى شكلى بعينىَّ المحمرَّتين وشعرى المنكوش وألمى.

ــ آه آه ..

صرختُ:

هل كانت صرختى عالية ومفزعة لدرجة أنهم جميعًا هرعوا إلىّ؟. أمى صرخت وأخذت رأسى فى حضنها فسمعت قلبها يرجف، وأبى الكفيف وصل قبل أخى ولم ينبس، وازدحم المكان بالعيال والأخوات، وشالونى إلى تحت.

فى حجرة أبى مددونى، لكنى كنت أزعق من ألم مجهول وأصرخ من كلام لا أستطيع نطقه. كنا ندخل فى الجزء الأخير من الليل وأمى تبكى و"إفراج» تبكى بصوت مسموع، بينما كنت أسمع كحة أبى بين حين وحين، وكنت أستأنس بها و«عمر» يبحث فى كل الأدوية عن مسكن، لكن رعبًا خافيًا يرعبهم من شكلى وتصرفى، فضربت صدرى بيدى طالبًا الموت مناديًا عليه؛ فالكتاب الضخم جعلنى قزمًا وتافهًا وسخر منى لأننى لا أستطيع – حتى – أن أستمسك بحلمى. الطيبة «حسنية» تركت العيال فى الدار، وسافرت حاملة مرض صدرها إلى بورسعيد حتى تفرش – حين ترجع – أمام الحارة وتبيع الهدوم القديمة المستوردة المرشوشة لقتل الجرب والأمراض الخبيثة، وعندئذ – كما قالت – تستطيع أن تشترى التليفزيون وتأكل اللحم وتعطى لابنتها الكبيرة فلوسًا للدروس الخصوصية، ألا يمكن أن تدخل ابنتها الجامعة؟ ــ هكذا حلمت «حسنية».

وخالى سافر ولم يعد، سافر للميناء حالمًا أن يلعب بالنقود الخضراء والسيارات ويلاعب النوارس فى الموانئ – لم يزعل لأن «البلدوزر» من أجل السوبر ماركت هدم جحره الذى كان ينام فيه، لكنه همس فى أذنى: دارك القديمة.. انسف. وأردف: ستصبح الدنيا – الدنيا – برخص التراب.

ــ آه يا خالى
أغيثونى..

طلب أبى منديلاً محلاويًا ومفتاحًا كبيرًا. ركع أمامى على السرير، سلمته رأسى.

لف المنديل حول رأسى، شده بقوة، آلمنى شعرى، وضع ثلاثة أصابع بين طرفى المنديل وجبهتى. تمتم بثقة:

ـ رأسه مفتوحة.

عقد عقدتين، وبين العقدتين وضع المفتاح الكبير ثم جعل يدير المفتاح ويدير، ويعقص المنديل حول رأسى، يربط ويشد، يربط ورأسى يكاد يتحطم من ضغط المنديل المحلاوى الذى كان يصنعه النساجون فى النول.. يضغط المنديل المحلاوى بشدة بقسوة الآن، وأسمعه يُسر لى:

ـ اطمئن.

ـ آه..

فك أبى العقدتين والمفتاح، تمددت رأسى، فارقها الألم، لكنه حط فى كل جسدى، حافيًا قفزت إلى الأرض.

ـ أغيثونى..

ابتسمت إفراج ونبهتنى:

ـ اشرب الشاى

وانحنت، وبصت فى عينى وقالت متسائلة:

ـ أغنى لك ؟

هززت رأسى موافقًا، فغنت بعذوبة:

ـ بيت العز يَا بيتنا.

على بابك عنبتنا

فيها خضرة ....» *

تهدمت تعريشة العنب، وجفت العروق الخضراء، الفئران لم تعد فى الجحور، والذباب يطن فى العلن، وأعض شفتى.

ـ أغيثونى

صرختُ وقد وقعت أرضًا، فدخل أخى الأكبر، طلب فنجان قهوة سادة، جلس أرضًا، وشدنى إلى حجره، وأزاح المنديل المحلاوى وهو يزعق معترضًا:

ـ منديل ومفتاح؟!

قدمت له أختى فنجان القهوة السادة، وضعه بتؤدة أمامى، وأخرج – بثقة – من جيبه قطعة سلوفان صغيرة، ضربت أمى صدرها:

ـ حشيش!!

قال الأكبر بهدوء ليوضح: أفيون

أذاب قطعة الأفيون فى القهوة السادة، ناولنى الفنجان بلا تردد، وبذهول رشفته. فرغت القهوة، انحنى وبص فى وجهى.

ـ أتستطيع أن تنهض معى؟

لم أرد، فشدنى بيسر من يدى، نهضت معه. أجلسنى على حافة السرير، وأمى تربت على ظهرى. طلب حذائى، فأحضرته إفراج بسرعة، ركع أمامى وربط حذائى جيدًا. أخذنى من يدى. لما سألوه إلى أين؟

زعق فيهم أن يسكتوا، فسكتوا.

خرجنا من ممر الحديقة الصغير أمام بيتنا. كانت ظلمة ورائحة ما. ورأيت بعينى التى سيأكلها الدود «الجنى» فوق شجرة النبق، يقلد فعل البصق، يبصق باتجاه النهر. يبصق. ولفحتنى نسمة هواء باردة كصفعة، فشهقت. قال أخى بسعادة:

ـ عظيم!

شد على يدى اليمنى بيده وخرجنا للظلمة ولبرودة لم أعهدها فى الأصياف. كأنهم جالسون أمام الدار – أبو سعده وأولاده – يقسمون الأرض والميراث، وواحدة يعلو صوتها بالنحيب. لم أتبينهم جيدًا، ضباب أو مطر غزير يفصل بيننا، لكننى رأيت بوضوح ابنته الصغيرة ووشم الثعبان يمتد من بين نهديها إلى أسفل بطنها، لم أخف وهى لم تكن خائفة، السيارات عن يمينى تعبر. لماذا أصبح كل شىء عن يمينى الآن وليس بيقينى! أحسست أنى أمشى فى عجين، .. أحيانًا أغوص وأحيانًا أطفو، ويطلع الدفء علّى،

ربما فيه سأغرق. تشبثت بيد أخى، ضغطت على يده، همسَ وربما كان يبتسم، هل يسمع الإنسان أحيانًا الابتسامة؟!

ـ لا تخف.. ستصبح فل الفل..

ـ انظر سيدك الششتاوى أمامنا.

نظرت ناحية المسجد، مئذنة صغيرة فى ظلمة.

أين سيدى الششتاوى؟! حاولت. فرأيتهم يتطوحون يمنة ويسرة برتابة ونشوة الاستهلال. بدأ إنشادهم خافتًا يشوبه النشيج.

ـ أما أنا الذى ....؟

كانوا يذكرون الله، واسم الله يتردد بشجن. رجف قلبى، يتطوحون يمنة ويسرة أسرع أسرع. بقوة أشد، صوت التنفس عال، والتهدج يصل إلّى يتطوحون بحماس، أسرع، بعنف، عنف، قوة، استسلام، الصوت يعلو للفضاء. ارتج صدرى، أخى الأكبر احتضننى وضغط علّى وهمس، كأنه يأمر:

ـ الدفء يصعد الآن من أخمص القدم.

أحسست به، دفئًا مدهشًا؛ فسحبنى من يدى لنجلس على دكة حجرية فى وسط الشارع.

هنا بالضبط كان النهر، والمراكب، والجنى، والسمك، والسباحون، والغرقى، هنا بالضبط أحلامنا وأمانينا التى ردمنا عليها التراب. ردموا النهر وتصايحوا: سيكون محله حدائق خضراء ونافورات.. وأعمدة كهربية وتماثيل رخامية. صار مكانه الكناسة والدبش والخراء. لكن هذه دكة أجلسنى أخى الأكبر عليها برفق فجلست باسترخاء، ولم أتخل عن يده، تناهى إلّى صوت الذكر، ثم تلاشى. لا أعرف كيف عامت بى الدكة، طافت، عامت فوق وجه النهر، والنهر يبخ صهدًا أحببته، فى وجهى ترتطم الأسماك، تلك الأسماك التى أجهل أسماءها وألوانها، تقافزت فرحًا بين الأسماك الملونة، ودرت بينها حتى صار الدوران رقصة ناعمة رقيقة، شعرت أن ماء النهر يصعد لأعلى.. لأعلى، ومددت يدى عن آخرهما، كن..

جنيات النهر قد تحلقن حولى ومدت لى – من بينهن – يدها الدافئة، شدتنى بحنو لبياضها الساخن وبين نهديها دفنت رأسى، فانحنت فوقى.. تكورتُ فى بطنها، همست لى بكلام لم أفهمه لكن لم أتوقف عن الرقص والتقافز والفرح، ثم ضغطتْ بقوة فانكسرت عظامى، وبيدها لمست جبهتى ودفعتنى دفعة خفيفة خفيفة، وذهبت إليه، للضابط الكبير ذى النجوم اللامعة، ولم يكن مبتلاً فأخذها فى عربة جيب ولوّح لى وابتسم بشراسة، لم ألوّح له ولم أبادله الابتسام، لكنى بدفعتها الخفيفة تلك وقعت. لامست قاع النهر، هربت منى الأسماك، هرع الدفء وسلمنى لبرد التراب، التراب بارد، شد أخى الأكبر يدى ودهش وزعق:

ــ ماذا تفعل؟

نظر لى بشفقة لم أخطئها، ثم جمع قوته وأنهضنى، وشالنى، وحطنى على كتفيه، وحملنى مثل طفل تدلت رجلاه فى اطمئنان.

وقال لى، كأنما يكلم نفسه:

ــ الدنيا تغيرت وأنت كالحمار لا تتغير.

يبدو أننى قهقهت عاليًا فقهقه هو الآخر، وظللنا نقهقه حتى وصلنا إلى سوق الجملة، نزل بحذر حتى انفلت برقبته من تحتى وخيل لى أنى وقعت فى رائحة الفواكه والخضروات. سوق الجملة.. أعرفه جيدًا.

هنا كانت الغيطان بلا حدود، والكلاب بلا عدد، والظلمة بلا أفق. أتذكره جيدًا.. كنت حينما أترك أصحابى فى مقهى «جادو» يستمتعون بدفئهم وصحبتهم وذكائهم فى لعبة الشطرنج.. كنت أرجع من المكان ذاته.. غيطان بلا حدود وكلاب تشم فىّ وتنبح.. أكاد أموت هلعًا وأمد الخطى. وما أن تفتح أمى الباب حتى أجلس وتقدم لى طبق الفول بالزيت الحار وطبق العجوة بالسمن وكوب الشاى ثم أصعد درجات السلم مسرورًا جذلاً إلى حجرتى التى فوق السطح وأسمع الموسيقى، وأقرأ بعض الكتب وأنام.. أنام.. أنام..

طبطب علّى أخى فى حنو؛ فوضعت رأسى على فخذه، وكان قاعدًا

راكنًا بظهره على قفص الشمام، لا أخطيء رائحة الشمام. هنيهة. وبحلقت فى الفاكهة والخضر، فوجدتهم أصحابى المانجو والبطيخ والعنب والجوافة، فريد ومحمد وعبده وأحمد وعاطف ووو.. ناديت بأعلى ما أستطيع يا فريد. فرد علىَّ نواح سيدة تموء، فأمسكت بجلباب أخى الأكبر مستغيثًا، فجاء «الجنى».. ربت علىَّ ثم خلع عنى حذائى، وبيديه أخذ يدعك رجلى.. يدعك ويدعك. وصل الدفء دماغى فنمت.

وكان هذا ما حكوه عنى فى الصباح التالى.

نظرت إلى «إفراج».. كانت تبص علّى. وابتسامتها مكسورة على جانب فمها.

لوزا

صبية أنثى

بقدمين حافيتين، والأحمر فى الأظفار

خرجت للشمس لأشفى وجلست على كرسى فوق حافة الرصيف لأرى الناس عن قرب، وطلبت من صبى مقهى «جادو» فنجان قهوة مضبوط، ورغبة تجتاحنى فى طلب شيشة مع أننى لست مدخنها، وددت أن أداعب الشيالين وعيال المصانع وأفرح بجمال الفتيات، وأربت على العجائز، وأضاحك هذا الفظ الذى كرهته منذ عرفت هذه المقهى. «شلبى» الفظ الذى يجلس بجسده الثقيل وكرشه المترهل فوق دكة خشبية صنعت خصوصًا له منذ الصباح حتى آخر الليل يزعق دائمًا فى الصبية ويقذفهم بما ملكت يده من أكواب أو فناجين أو جوزة بحجرها المشتعل، وأحيانًا يزعق فى الزبائن، ويصر على إلقاء التعليمات ويصرخ بصوته المبحوح:

ـ أنا شلبى.. أنا صاحب المقهى.. أنا أغلقها بإشارة

من إصبعى أنا.

ثم يشتم ويلعن ويبصق، والناس تهرب بالانهماك فى لعب الورق أو بالتهليل لهدف فى مباراة كرة قدم. ثم يتغامز الزبائن، يضحكون فى أكمامهم، فهم يعرفون حكايته مع زوجته التى خانته وذات ليلة أرسلت صبيه يطلبه ليراها فى حضن رجل أكد أنه رآه من قبل ولكن أين؟ هذا ما لم يحدده. ولما كان (شلبى) يتمتع بجبن بالغ فقد بكى وقال لها: إننى لم أر. لكنها طلقت فيما بعد وتزوجت ثلاث مرات و.. كانت إحدى رغبات «محمد» أن يرى هذه السيدة ولو مرة واحدة.

سألته:

ـ أتكتب عنها؟

رد ساخرًا:

ـ أكتب؟!.. لأرى.. أرى يا جابر.. امرأة كهذه لابد أن كنوز الدنيا وسحرها تسكن جسدها.

و«فريد» يصرخ:

ـ يا حمار.. هذه مجرد أمثولة لنرى «شلبى» هكذا.

ولأننى كنت مقررًا أن أدخل السرور على نفسى الممرورة، وأن أشفى

من وحدتى؛ فقد ألقيت على «شلبى» السلام، فرد علّى بفرح لم أعهده ثم عقب كطفل:

ــ يا ساتر عليك.. أخيرًا تنازلت وكلمتنى.

ابتسمت. سأبتسم للعالم أجمع حتى يبتسم العالم لى، هكذا قرأت فى بعض النصائح، وعليه تواعدت مع «منصور» أن نلتقى هنا فى العاشرة من صباح اليوم، والآن الساعة الثانية عشرة ولم يأت «منصور"، لن أزعل منه. ألم أقرر؟!

تقدم الصبى ووضع أمامى كوبًا كبيرًا به مشروب ساخن أصفر، وقال:

ــ موغات .. على حساب المعلم صاحب المقهى ..

المعلم شلبى على سن ورمح.

نظرت إليه فى مكانه العالى، أومأ لى المعلم وابتسم، وأشار بحزم، وبأمر لا فصال فيه:

ــ اشرب.. اشرب يا جبور..

ياه. هكذا مرة واحدة يذوب العالم كقطعة حلوى فى فمى. كانت المشكلة كيف أشرب الموغات وأنا لا أحبه؟!

تمهلتُ وتأملت بعض الوجوه، منك لله أيتها الوجوه، ستعيدين لى قرفى. وجوه ضعيفة، حزينة قلقة، متوترة، ساهمة. وأحيانًا أرى وجوها شفاهها ترطن بكلام غير مسموع وانفعال مكبوت، ليسوا مجانين بالطبع، لكننى دائمًا أتمنى أن أسمع شتائمهم، نعم إنهم يشتمون..

ــ منصور تأخرت قليلاً

ضحكتُ..

ــ لا يهم.

أخرج علبة سجائره، ثم سحب سيجارة، أشعلها، مد الصبى يده إلى

العلبة وأمسكها، قبل أن نندهش أشار للمعلم شلبى قائلاً:

ــ المعلم يريد هذه العلبة.. بالذات.

أشرت لمنصور برأسى أن يوافق. ما أن وصل الصبى للمعلم شلبى فى مكانه العالى، وناوله علبة السجائر، حتى هتف المعلم:

ــ جبور.. هكذا دخلت الدنيا.

آه. وضعنى «شلبى» فى دماغه. قلت لمنصور إن هذه غلطتى، فقد تباسطت معه، وابتسمت، ووافقت على فرض طلبه الموغات على حساب المعلم. وكان العجوز يمشى بسرعة ويجر طفلة خلفه تتعثر فى شبشبها.. وصفت المشهد لمنصور، وضحكنا – ليس من قلبينا بالطبع – طلبت شايًا وتركت الموغات لمنصور.

منصور داعب شاربه الخفيف وسأل:

ــ ما حكايتك؟! تركت لى موعدًا على مقهى، ليست عادتك.. قل.. ما حكايتك وأنت تعرف، أنا تحت أمرك..

فى آخر رشفة من الشاى تنهدتُ. وكان العربجى فى منتصف الشارع يمسك بخناق سائق السيارة نصف النقل والازدحام حول السيارة وأصوات الزعيق عالية. زعق «شلبى» من مكانه:

ــ مجانين.. مجانين..

قلت لمنصور:

ــ أريد أن أخرج من ألمى الذى لا أمسك به..

قفز السائق من باب السيارة ولكم العربجى بعنف، وسقطا معًا السائق والعربجى بين البشر. أردفت لمنصور

ــ أريد أن نتمشى فى المحلة.

دهش وردد:

ــ نتمشى فى المحلة! حاضر..

نهض واقفًا، وأجهز على كوب الموغات وصاح بسعادة:

ـ هيا بنا

وقف صبى المقهى أمامى، ويداه خلف ظهره، أخرجتُ النقود لأحاسبه، قال بنبرة امتعاض:

ـ لا .. كلم المعلم

بدأت أغتاظ. أنا فى الأصل لا أهوى العلاقات مع المتخلفين والمعوقين والمجانين و.....

زعق من مكانه آمرًا:

ـ تعال يا جابر.

ذهبت، وفجأة بيديه الغليظتين أمسك بياقة قميصى وشدنى بإهانة وهو يصيح:

ـ أرسلت إليك بالموغات.. تجرأت وتركته لصاحبك.

فى الحقيقة لم أفكر فى أى شىء سوى أن شددت نفسى ثم بكل عزمى بصقت فى وجهه، وتبعت ذلك بكم من الشتائم القبيحة للغاية والاستفزازية، كان هذا بينما تتشابك الأيادى، وترتطم الأجساد، ومن يحول بينى وبين المعلم، ومن يهمس فى أذنى:

ـ هذا مجنون يا أستاذ

تجمع صبيان المقهى حولى وطالتنى أياديهم. منصور يشدنى ويصرخ:

ـ سأقلبها مذبحة يا أولاد الكلب...

جذبه رجل ضخم وهو يفهمه!

ـ الغلط على صاحبك... ألا يعرف أنه شلبى..

أطلقت سيلاً من الشتائم البذيئة، واختلط علّى الأمر، وانفجرت كل أسبابى، قفزت فوق كرسى، وصرخت:

ـ نتحمله لأنه مجنون

هذه هى المصيبة..

المجنون صاحب المقهى....

وفجأة اكتشفت أن الازدحام شديد، والنسوة بيننا وبينهم، والعربجى والسائق يضحكان من شلبى معًا ثم رفع العربجى كرباجه، وفرقع به فى الهواء ثم أخذ يرقص وهو يغنى:

ــ يا شِلبى يا شلبى.. يا شلبى...

ثم قفز مثل بهلوان وهو يزعق:

ــ أين أخلاق القرية يا غجر؟

فى الشارع هندمت ملابسى، ومشينا صامتين، ثم انفجر منصور ضاحكًا:

ــ خسرت علبة السجائر

ثم صمت، وقال وهو يطبطب على ظهرى:

ــ ولا يهمك.

لكن السأم كان قد اجتاحنى وعقدت حاجبى ولم أنبس.

تشبثت بذراع «منصور» وأمسكت بكوعه، وطلبت أن يدخلنى الحوارى الضيقة والشوارع الكريهة ولما استغرب قلت له اعذرنى، أريد أن أعرف الحقيقة واليوم.

قال لى مبتسمًا:

ــ اليوم هو التاسع والعشرون من يناير.

تذكرت ذكرى، وحواديت قديمة.

هل يومها فرحت بى أمى؟ وأبى ماذا كان يشغله أكثر؟ ولادتى أم الجراء التى جرت إلى حجره عمياء تبحث عن دفء فوضعها فى حجره بينما الكلبة تلحس كتفه، والعنزة يومها ولدت عنزتين؟ أم أنه قدم العنزة لأمى لأشرب أنا اللبن! ولا أشبه الليلة بالبارحة، فالظهيرة ضد الليالى والسخونة ليستِ الدفء. بص فى وجهى، هز يده بخفة أمام عينى وسأل:

ـ هل ترى يا جابر؟

لعلنى حين أدخل نفسى أرى أكثر. مال الغيظ ينهش فى مثل كلب مسعور! عندما ابتسمت للمعلم ومددت له طرف الخيط، أراد أن يخنقنى به، والآخرون يهللون بالخناجر ويدفعون بالأيدى، والنسوة انحشرن بلا سبب بين الرجال

ـ خذنى يا منصور إلى هناك.

الصهاريج قائم ما يزال – أنسى أن أراه بالسنوات رغم مرورى بجواره فى الصباحات الباكرة – قائم حملقت فيه. ليس صهاريج «عباس أحمد» فى رواية «البلد» فقد انقشع عنه ذلك الحلم وتلك الرومانسية. وقفت مبهوتًا سألته:

ـ هل هذا هو الصهاريج؟

مسد شاربه وابتسم وأجاب مداعبًا

ـ نعم هو الصهاريج بحديده ومساميره يا سيدى.

البناء الحديدى العالى الشامخ ضاع بين دكاكين من خشب، ودكاكين من قماش، وعربات تجرها الحمير، وعربات خشب بيد مقلوبة، ساكنة!

حوله ازدحم الباعة، باعة الحلل الألومنيوم الرخيصة، والبلاستيك فى كل أشكاله: أكواب وأطباق وحلل وطشوت، وقلل، وشماعات وشباشب، وموائد وكراسى، ولعب.

ـ كل شىء من البلاستيك يا منصور!

الباعة حزموا الصهاريج بعربات الفاكهة المستوردة، وقلل الفخار المحروقة وسلك الألومنيوم والقطن ردىء التيلة، والقماش المستعمل، بالفعل كوم من الملابس، كوم هائل، تمتمت كأبله حقيقى:

ـ منصور.. هل باع الناس هدومهم؟!

ضحك منصور عاليًا، ووقف فى مواجهتى، واليوم كنت أشعر أنه ند

لى، وهذا أسعدنى فاستسلمت ليديه.

ابتسم وبمزيد من الأسى ردد:

ــ هذه أيضًا حكايات لم تحدث

ثم وقف تمامًا وأشار بإصبعه وقد فرغ صبره بسببى:

ــ هذه بالات هدوم قديمة من بورسعيد.

بورسعيد!

بورسعيد عندى تعنى الكفاح ضد الإنجليز والصهاينة، بورسعيد المقاومة والشهداء، بورسعيد قبلة الشعب المجيد.

كاد يقع على قفاه من الضحك. صاح فى وجهى:

ــ هووه.. بورسعيد الانفتاح.. اصح.

شممت رائحة فذة.

تلصصت، تقدمت، اقتربت، ركعت، مددت رأسى، تشممت، هاجمتنى الرائحة الفذة من الهدوم، رائحة غريبة تشى بخدعة و..

شخرت المرأة بصوت مرتفع:

ــ نعم يا خويا.. تعال شمنى أحسن

وقفت مرتعدًا. أمسك يدى اليمنى، ضغط عليها وقال:

ــ اسمع..... سأعود لزيارة أم فرج

أنا أثق بك يا منصور، فلا تلعب بى، ما أراه ليس المحلة، من منا ابتعد عن الآخر! من تاه!. منصور.. أثق بك فارحمنى، أنا المسكين الآن بين يديك. قال بحسم:

ــ لابد أن ترى أم فرج..

ضحك. ثم أخرج سيجارة، لم يضعها فى فمه وقال:

ـ هذا مكان لم يحدث من قبل.

سوق اللبن، ميدان جاويش، المسجد المهيب، والزبالة المكدسة فى وسط الميدان، على حواف الزبالة يجلسون يشربون الشاى ويدخنون الحشيش، والمرأة العجوز تشوى «الأذرة» على رصيف المسجد، لم ألحظ البيت القائم فوق الدكاكين، لم أتصور أننى سأزوره فيما بعد مرتبكًا خجولاً متوترًا باحثًا عن وردة بيضاء.

علاقتى بسوق اللبن ضئيلة، أجهل حاراته وأزقته ودكاكينه الجحور، أما بناته فجميلات، ورجاله تجار بدون ابتسامات، وعجائزه أقدامهم على أبواب القبور، وحاراته سد.

دفعنى لحارة سد، هاجمتنى رائحة الجمبرى، تلك الرائحة التى تقلب معدتى، لا أحبه، تقضى على هل تختلط بالصنان؟!

دفعنى لباب مفتوح.. لمدخل مظلم. صفق بيديه ثلاث مرات، فجأة سطع الضوء من مصباح كبير من مصابيح البلدية، وقالت قبل أن نراها:

ـ تفضل يا باشا.

فتاة صغيرة تجاوزت الخامسة عشر بقليل بيضاء بحمرة، ترتدى جلبابًا ورديًا شفيفًا بدون أكمام، صدره مفتوح على جمال يستحيل أن تراه وابتسمت:

ـ تفضل يا باشا

ضحك منصور، أوضح لى:

ـ لوزا....... اسمها لوزا.. ابنة أم فرج.

إلى أين أتفضل؟ وكيف تكون فتاة صغيرة بهذا الجمال الأخاذ وتخرج من تلك الظلمة وماذا ترتدى؟

غمزنى منصور:

ـ أخذت بالك من الجلباب؟.

صمت قليلاً وهمس:

ـ مستورد.

ثم ضغط على ذراعى ليحذرنى:

ـ بجنيه.. جنيه.

صعدت – أمامنا – درجات السلم بثقة وطفولة وإغراء بقديمن حافيتين والمانيكير الأحمر يلتمع فى الأظفار. داهمتنى رائحة الهدوم المرشوشة. بيد لوزا اليسرى ثلاث غوايش ذهب لامعة. عندما وصلنا للطابق الثانى هتفت:

ـ أمى... زبائن

بصت لى وضحكت، وأكملت:

ـ جدد.

تقدم منصور كالعارف بالمكان ونادى:

ـ أم فرج... دستور

خرجت إلينا أم فرج، جثة كبيرة ضخمة طويلة وعريضة بيضاء مترهلة، تربط رأسها بشال فاقع اللون فيما يتدلى القرط الذهبى من أذنها حتى الأكتاف، أكمامها مشدودة لأعلى فتبين غوايش من ذهب لا حصر لها، تنهدت وهى تتفحصنى:

ـ أمر البيه؟!

قال منصور:

ـ يعنى.... البيك يريد أن يتفرج.

ضحكت بصوت مرتفع كأنه السخرية:

ـ البضاعة على عينيك يا تاجر.

استدارت وخلف ردفيها مشينا، وبدفعة خفيفة فتحت باب شقة وكان

الضوء شديدًا أيضًا وقفت مكانها ولوزا سندت ظهرها للحائط وابتسامة تداعب شفتيها. من مكانها أشارت أم فرج:

ـ تفضلوا، حجرة القمصان.. حجرة الفساتين..

حجرة لا مؤاخذة الهدوم الداخلية الشفافة.. حجرة البنطلونات..

ثم قالت لى خاصة:

ـ بيت جحا.. ألم تسمع عن بيت جحا؟

وجلست على كرسى كبير، عمولة، من خشب الزان، ثم أكدت:

ـ أجدع ما فى بورسعيد فى حجراتى.

أكوام من الملابس على الأرض، أكوام نظيفة شبه جديدة، أكوام متسخة من النقل والميناء ومشاوير السيارة النقل – كما تقول. تهاجمنى الرائحة ويذهلنى اختلاط الألوان والموديلات، وذوق خاص مفروض علينا أن نلبسه.

لوزا تحركت باتجاهى وسألتنى:

ـ تريد لك....

ولفت حولى ثم سألت:

ـ أم للعروسة، أم للحبوبة، أم للجو!؟

ثم عضت شفتها السفلى التى فى لون الفراولة، وقالت بهمس:

ـ أم للست التى تزورها من وراء زوجها؟

ابتسمت لعذوبة صوتها ولجمالها و... أردفت هى:

ـ لكل زبون ملابس.

بحلقت فى طويلاً وقالت:

ـ أخمن.. لست متزوجًا.

دخل منصور بين الملابس، خاض فيها غاص كأنه فى بحر، تعثر..

وقع، رفع يديه كغريق وزعق مداعبًا:

ـ غواية الفساتين..

الإضاءة قوية رغم النهار بالخارج.

اقتربت منى جدًا، لمست حلمة نهدها ذراعى وقالت:

ـ أخمن.. أنت تحب...

ثم تمتمت فى أذنى:

ـ عندى لك هدية تجنن.. سوتيان يهبل.. وملابس أخرى... اطلب..

رغبت فيها فعلاً، لمسة واحدة تسرى فى الأوصال نشوة، لكنها رقيقة جدًا وصغيرة جدًا وصغيرة أيضًا. نظرت لها طويلاً - خلسة - أى بحر تسبح فيه...

اقتربت، فتحة الجلباب تفضح نهدين صغيرين مشدودين كتفاحتين صغيرتين.. زعقت فجأة:

ـ انظر للهدوم واشتر...

ثم ابتسمت

ـ صدرى لن ينفعك

لاحظت أن «منصور» يتفرج على وقد وقف واضعًا فوق رأسه كومًا من الهدوم. فضحكت كثيرًا بهزة من رأسه رمى كل الهدوم، ثم انحنى والتقط قميصًا، أى قميص، وشرعه فى وجهى.

ـ قميص لم يحدث.

وخرج من الكوم:

ـ سنأخذ هذا القميص.

ضربت صدرها وسخرت:

ـ كله!! . ظننتك ستشترى بعشرة جنيه!

قلت لها وقد عاودنى هدوء المستسلم:

ــ هل لابد أن نشترى؟

عادت لدلالتها، وقالت بدلع:

ــ لابد ستشترى... ونحن سنبيع.

قال «منصور» لينهى الموضوع الذى يدركه:

ــ طبعًا طبعًا.

خرجت أمامى، ومنصور خلفى ممسكًا بالقميص.

فى الطرقة وقفت «أم فرج» وكان أمامها ثلاثة رجال يرتدون البنطلونات والفانلات المكتوب على صدرها باللغة الإنجليزية. وقفنا ننتظر حتى تفرغ «أم فرج» من تعليماتها وأوامرها للرجال الثلاثة وكان أحدهم بعين زجاجية.

ــ بكره من الفجر تطلع مع المعلم لبورسعيد

معكم ثلاثمائة جنيه، أكثروا من الشباشب. الناس تريد الشباشب..

نزلوا على عجل، كأنهم يجرون خلف بعضهم على درجات السلم. ناولها «منصور» الجنيه، وهو يرفع أمام عينيها القميص.

ضحكت مستغربة:

ــ قميص!

لكنها أردفت:

ــ لا يهم نريد أن نرى البيبه على كل حال.

أخذ «منصور» القميص ونزل درجات السلم، خلفه نزلت، لكننى ألفت الضوء والرائحة وكنت أريد أن أصعد مرة أخرى لأرى بقية الحجرات.

حين انتهت درجات السلم وقفت هنية، ثم نظرت خلفى فلم أر «لوزا» تودعنا.

بعد ساعة سيصل القطار

فريد قال

ثم قفز كغزال

أخيرًا رجعت إليهم. أحبهم، البنات والأم والأب وفريد. يتحلقون حولى، أشعر بقلوبهم ترفرف فرحًا، وجوههم المضيئة تشى بالحب. تربت الأم على ظهرى وتدعو لى، والأب لا يكف عن حكاياته لى حاملاً كل الود، وضحكته الحلوة لا تفارقه، كان صاحبنا ويبدو أحيانًا بروحه المرحة أصغر عمرًا منا. وإقباله على الحياة أوسع، واحتماله لها غير محتمل.

ـ أقول لك لماذا؟

أنا سائق على الطريق، حياتى سفر، وعملى سفر، آكل وأنام وأعيش على سكة سفر وانتظارى طويل للمحطة الأخيرة، ولو لم أضحك سأموت فى أول مطب.

دعوت له بطول العمر، وقدمت لى الحسناء صينية فوقها صحن به جبن وزيتون وخبز طويل وكوب شاى.

نظرت فى عينيها بحرج اللقاء بعد قطيعة مع بيت أحبه. سنة كاملة!!

سنة وأنا بعيد، فريد عندى فى حجرتى بين الكتب والسهر والأحلام، وأنا فى البعيد، أتأمل وجه فريد؛ لعلنى أعثر على من أحب. كيف أدخل بيتًا اعتذر لى عن زواجى من ابنتهم الحسناء وسط حيرة من الأهل والأصدقاء وحتى فريد نفسه. همس ذات أصيل ونحن فى شرفة حجرتى:

ـ اعذرنى يا جابر...

حين جلسنا وكان بيننا تمثال «فينوس» يلتمع فى بياضه قال:

ـ الفرق كبير بينكما... فى الثقافة والتعليم و..

نهض، جلس على كرسى مقابل، وقال وهو يسأل كأننى طفله الصغير الذى يقنعه بود:

ـ كيف ستقرأ قصصك مثلاً؟

جمالها الأبيض بالغ الحسن، ومحاسنها بالغة السحر والأنوثة والطفولة معًا. كنت أظننى بالنسبة لها ولهم شخصًا مناسبًا للغاية، بل

بالنسبة لها طموحًا لن تبلغه. تحرج فريد واعتذر لم يتركنى أبدًا، ولم يقدم مبررًا واحدًا سوى كيف ستقرؤك مثلاً! لكن لابد أن البيت كان يحمل خططًا أخرى ربما هو العريس الذى ظهر بعد شهور قليلة.

ـ ها قد حضرت.

هتف فريد بعد خروجه من الحمام ينشف رأسه بمنشفة، وأقبل على مثل إنسان خرج لتوه للحياة نظيفًا محبًا، وثمة أحلام تراوده أهمها أن يشرب كوب شاى ساخن معى فوق السطح.

كان الكرسى يتأرجح بفريد فيهتز باستمتاع واسترخاء ويكلمنى عن شمس الشتاء وحبه الجديد، فيما أسمع مبتسمًا، أتأمل وجهه الأبيض، فسألنى بدهشة:

ـ هل تظن بى الجنون؟!!

قلت لا. أعطيت ظهرى للشمس

ـ لن تشيخ أبدًا يا فريد.

طلعت الحسناء إلينا، مغسولة كوردة، ابتسمت كطفلة، قالت وهى تشد الكرسى.

ـ أجلس معكما!

قلت مؤكدًا:

ـ طبعًا.

شدت الكرسى إلى جوارى، شممت رائحتها العطرة، ثم أخذت تحدثنى عن كيف وحشتها، وتأسف لأننى تركتهم هذه السنة الكاملة وتقول: إنهم لا يستغنون عنى. بصت لى بوجه يعكس كل ضوء الشمس:

ـ وماذا فعلت هذه السنة؟. احك لى يا جابر.. احك.

وفريد يتأمل المشهد، بينما يهتز كرسيه برتابة.

تركتنا الشمس ومالت، حطت يمامة بنية نحيلة على سور البلكونة،

شدت انتباهنا. قال فريد:

ـ طائر صغير، لم يستطع البنى آدم أن يسخره له كالحمام.

نهضنا للنزول، طارت اليمامة، سبقنا فريد بالجرائد ومجلات الشعر وسجائره وكرسيه الهزاز. وكانت الحسناء تبادلنى نظرات وعتاب لا أفهمه.

حين تأهبنا للرحيل دمعت عينا أمه.

ـ مع السلامة يا فريد.

لماذا حرمونى من دفئهم هذا!

ـ سنراك يا جابر... فريد سيسافر..

اقتربت منى كثيرًا، قالت بخجل، وكأنها تبتلع الكلمات قبل أن يلتقطها الغير:

ـ لا تحرمنا منك.

أصر الأب أن يخرج معنا ليوصل فريد إلى محطة القطار.

هتف معترضًا:

ـ ما هذا الدلع؟... اتركوه لى..

حمل فريد حقيبته وخرجنا.

أشعر أنه سيتركنى للوحدة الغبية، كان يملأ حياتى وكان يحب ابتسامتى الغذبة كما يقول دائمًا. دعوته إلى كافيتريا صغيرة بجوار المحطة تقبع تحت شجرة عملاقة. رجانى أن أتنبه لحياتى وأن أكتب بلا توقف، قلت له إننى أحب الأصدقاء لكنهم رحلوا؛ عبده فى الإسكندرية، قاطعنى:

ـ ماذا يفعل فى الإسكندرية؟

ـ يعمل

ضحك طويلاً وباستغراب:

ـ يشرف على الترام!!

وقال أنه سيكتب لى دائمًا وسوف يتناقش معى عبر الرسائل، وأردف أنه أيضًا سيفتقدنى.

بدأ الغروب يحط على المحلة فيزيدها كآبة فى تلك اللحظات، وفات موعد ثلاث قطارات أجلناها لنكمل الحديث ولنترك للشجن كل المساحات، وتشبثنا باللحظات الأخيرة.

شربنا القهوة، والقهوة والشاى، والقهوة، عندما نهضنا لعب فى شعره وقال:

ـ ما رأيك؟ أريد أن أرى محمدًا

انحنت أم محمد على الدرابزين وأشاحت بيدها:

ـ محمد نائم.

دهش فريد:

ـ أنا... مسافر وأريد أن أراه

قالت بغضب:

ـ نائم.. اتركوه لشغله.

من أعلى درجات السلم نادى محمد بحسم:

ـ اطلع يا جابر.

ارتبكت الأم قليلاً.

فى الحجرة الفقيرة جلسنا، على الحائط صورة لامرأة فاتنة، ولوحة الشطرنج. جلست فوق كوم الكتب المكدسة على الأرض. بادرنى محمد:

ـ قرأت قصتك فى الجريدة... ليست سيئة... و... ولكن تمرد قليلاً.

لم أعرف على ماذا، لكننى ابتسمت:

ـ بسيطة... التمرد سهل.

قلب فريد فى الكتب ثم أمسك بكتاب ضخم، والتفت لمحمد:

ـ أحتاجه.

رد محمد مباشرة، وأصبعه يلعب فى أنفه:

ـ وأنا أحتاجه أيضًا.

ثم أردف:

ـ إنت مسافر!

ثم نهض حاسمًا الموضوع

ـ إذن هيا بنا.

فى الشارع المظلم تحدثنا فى أشياء بسيطة، وعبرت عن جهلى بأخلاق القرية والديمقراطية ذات الأنياب وقلت حتى العالم ليس منابر للوسط واليمين واليسار كما يظنون.

رد محمد:

ـ هذا أفضل من لا شىء

رددت بعصبية:

ـ أفلام.. شغل أفلام.. سيناريو وديكور.

قال محمد:

ـ إن الكلام فى السياسة أصبح مملاً.

ومد يده بالسلام فقد كان على موعد مع بعض الأطباء.

مشيت مع فريد إلى قضبان السكة الحديد. ظلمة شديدة وأنا أخاف أن يداهمنا قطار بغتة، وفريد يلتقط الزلط ويضرب به قضيب القطار فيرن الصوت مكتومًا، حقيبته على كتفه الأيسر، يلتقط الزلط، ويركله بقدمه، مشيت على قضيب السكة الحديد فاردًا ذراعى متوازنًا خفيفًا ومشيت أطول مسافة ممكنة، وقال فريد:

ـ لا أستطيع أن أجاريك فى هذا يا جابر!

قلت له بلا مناسبة:

ـ عبده سيشتغل فى الموانئ.

رد ساخرًا:

ـ سيصطاد اللؤلؤ!

ما المانع أن يصيد اللؤلؤ؟، عبده يستطيع أن يصيد القمر.

يحاولون جميعًا، يجربون بحارًا أخرى، ولا يخسرون التجربة، وأنا أحب هذه المدينة فتحط كل أسرارها وكآبتها فى قلبى كل أحلامها تتحول إلى كوابيس وكناسة، تضج الوراقة بمياه المجارى تمشى فى نهير طويل ممتد.

صراخ وزعيق وسلع تقتحمنى وتشدنى من رقبتى، فأهرب للشوارع الجانبية المغلقة على ذاتها وروحها. عمال وموظفون يعيشون كيفما اتفق فى انتظار الرخاء القادم. المجهول. الشبح.

أكد أحمد ذات ليلة:

ـ ولكن الملامح تغيرت.. قبل أن أعبر

وبعد أن عبرت.. كنت مستغربًا!!

أسمعنى أحمد قصيدة العبور، المعبرة حقًا عن مصرى يقدم روحه ليعبروا عليها. طبطبت عليه، فدمعت عيناه، وتلعثم وقال:

ـ حرب.. وانتصرنا
ماذا فى وسعنا؟

قال فريد باهتمام:
ـ أنصت

تصنت. سكون شديد. قلت:
ـ سكون

قال بإعجاب:

ـ ها.. لم تسمع صوت صراصير الليل

جلسنا على قضيبين متقابلين، ثم كأنما خطر له خاطر جميل، إذ هتف:

ـ انتظر

ثم مدد جسمه، ووضع أذنه على قضيب السكة الحديد باهتمام بالغ وقال كعارف:

ـ بعد ساعة سيصل قطار

إنه الآن ترك «دمياط» وضحكنا، وتقافزنا فى عتمة الليل.

فى بوفيه المحطة جلسنا على كرسيين متقابلين، تمسحت قطة برجل فريد؛ فصرخ كطفل ثم ضحك عاليًا.

ـ ما زلت تخاف القطط يا فريد

ـ نعومتها الشديدة تجعلنى متوجسًا

وهى عفاريت.. أرواح يابنى

سألته هامسًا:

ـ ألا تريد شيئًا؟

ـ لا.. أكتب لى

نظرت فى الساعة، قلت بقلق:

ـ القطار القادم من دمياط فرصتك الأخيرة للسفر.. لا تنس.. سيطلع الصبح بعد قليل

لا أعرف من منا كان يريد أن يترك الآخر. من منا يخاف أن يكون وحده؟

تمتم بأبيات شعر عذبة. هززت رأسى:

ـ أكمل

ـ لا أحفظ.. أنت تعرف

لن أذهب طول غياب فريد إلى بيته، وهذا فى حد ذاته سيء، كنت فى الظهيرة أذهب فأجلس معها، تبادلنى الحكايات، وتقدم لى طفولتها مثل

القطة عفريتة. لوزا.. تذكرتها، لم أرتد بعد القميص الذى اشتريناه منها.

نظر فى ساعته، ثم قال ببعض أسى:

ـ لا تنس.. مر على أبى وأمى

يعنى.. مر عليهم فى البيت

صوت صافرة من البعيد تناهى إلينا.

وقف. أمسك بحقيبته. ضغطت على يده. قفز فى القطار.

وحدى صرت فى محطة مظلمة.

بلمسة خفيفة
أطفأ كل الأنوار

كنت من قبل هائمًا حبًا فى هذه المدينة.. غير أننى اليوم ظمآن لمعرفتها حقًا. وحدى وحواريها، وعلّى أن أعيش راضيًا مرضيًا، أو أموت فيها مكتئبًا.

وكنت من قبل طفلاً ألهو بألوانها، لكننى اكتشفت أن الألوان باهتة وماسخة أكثر مما ينبغى. قررت التعرف على ألوان جديدة، وقلت لنفسى لا تنتهى الحياة برحيل الأصدقاء. حسنًا.

سأذهب مرة أخرى إلى سوق اللبن.

وصف لى البيت، ذات مرة حين التقينا فى قصر الثقافة كان ضحوكًا واثقًا من نفسه، شعر رأسه كثيف وخشن وغزير، لا يقصه، تحدث عن الفن للفن فابتسمت لنفسى لأنه أطيب من تلك المقولة الخبيثة.

وكنت من قبل أضع الشخوص فى صدرى. كنت من قبل أفتح لهم حجرات قلبى ليسكنوا إلّى، خزنته فى صدرى حتى إذا احتجته أخرجته إلّى، والآن أحتاج إليك يا «رسمى» فى سوق اللبن. سأجدك وبسهولة.

لابد أنه البيت الذى عن يمينى رقم ١٩ نعم هو.

باب البيت من الخشب العتيق المنحوت عليه مثلثات، له طراز قديم، ورسومه بتلك الشراعة تأسرك إذا كنت تتوق للمسة جمال. مددت يدى إلى السقاطة، تراجعت. سيتذكرنى بالطبع. لا شك. ضربت بالسقاطة ضربتين، وفورًا فتحت الباب سيدة عجوز نحيلة جدًا، ترتدى السواد، شعرها أشيب وممشط بعناية، قبل أن أفتح فمى جلست على كرسى خشبى خلف الباب العتيق مباشرة وأشارت لى أن أصعد. قلت:

ـــ رسمى

ردت قبل أن أضيف أى شىء:

ـــ فوق

كأن البيت ديكور من خشب، وكأنه تحفة قديمة. صعدت على درجات السلم الخشبى. فى مدخل الطابق الأعلى شقة بابها مفتوح عن آخره،

وضوء خافت، ورائحة تبغ، سمعت ضحكات رجالى عالية، ندهت:

ـ رسمى...

جاء، ووقف تحت بقعة ضوء، ثم مد يده لزر كهربائى فغمر المكان ضوء ساطع ووجدته ممسكًا بيده اليسرى «بايب»، وبذات شعره وسوالفه الطويلة، فاجأنى بحب غامر هاتفًا:

ـ يا جابر!!

ارتحت للمقابلة، أخذنى فى حضنه، قال بثقة:

ـ كنت أعرف أنك ستشرف هذا المكان فى أى وقت.

فرحت. ورددت بين نفسى: الأصدقاء الجدد يبدأون الحياة جديدة. تلفت حولى فى حذر.

سألنى باهتمام:

ـ ما الذى يقلقك؟

قلت:

ـ لا شىء.. ولكن.. أليس للدار أهل؟

ضحك حتى كاد يستلقى على قفاه.

ـ ليس سوى العبد لله، والولد ممدوح الضائع، إنه الآن فى المطبخ.

ضاحكته:

ـ سنتعشى إذن.

رفع إصبعه فى وجهى وقال بجدية لطيفة:

ـ بيض وبسطرمة ولانشون وهمبرجر

قلت معلقًا ومبتسمًا:

ـ ياه.. أكل انفتاحى.

ونهض أتعرف على المكان.

أمسك بفرشاة طويلة كمدرس يهدد طفلاً، لكنه يقول والفرح بى ما زال يتملكه.

ـ أخيرًا.. أخيرًا يا جابر سوف ينعتق الشعب المصرى من الفول والفلافل.

اللوحات مبعثرة فى المكان الجميل، حقًا المكان لا علاقة له بسوق اللبن. أرائك مريحة، على الأرجح غالية الثمن، ستائر، كشافات كهربية مختبئة فى كل ركن، وصورة امرأة عارية فى وضع مثير، وأباجورة ضخمة تطفى على المكان خدعة. قلت فى نفسى ولكن بقلق:

آه.. مكان جديد.. أين أنت يا مصباح محمد، وتواضع أثاث فريد، وحجرتى التى فوق السطح؟

وقفت أمام اللوحة المشدودة على الحامل... أتأمل

تنهد من خلفى:

ـ آه... تعذبنى.. لم تكتمل بعد!

بوضوح تقف البنت النحيلة الصغيرة بوجه طفل ونهدى امرأة لعوب وبين انفراجة ساقيها تقبع وردة... و... لم تكتمل اللوحة... تأملتها طويلاً، المفردات مألوفة، والخطوط عادية ورومانسية تختلط بادعاء ما. وقف رسمى ورائى تمامًا. سأل وبنبرة غرور اكتشفها بسهولة:

ـ ما رأيك؟!

لم أشأ أن نتعثر فى بداية طريقنا، قلت بهدوء:

ـ الوجه...

لم أكمل حتى رد بزهو:

ـ عبقرى!!!

أردفت:

ـ الوجه... ربما.. ربما رأيته من قبل.

ضحك عاليًا، وسقط فى كرسى فخم قائلاً بصوت مرتفع:

ـ لا يمكن طبعًا أن تكون قابلت لوزا.

تمتمت مندهشًا:

ـ لوزا!!

دخل ممدوح صائحًا مبتهجًا:

ـ هالو.. مساء منعش تفوح منه رائحة الهمبرجر والبيرة والسجق.

اعترض رسمى:

ـ سجق فى الليل البهيم «يا حمار"!

فضحكنا جميعًا.

اعتذرت عن شرب البيرة، فدهش رسمى وسأل بصوت خفيض يشى بسخرية:

ـ غريبة!!

كأننى لم أسمع، سألته:

ـ هل يمكننى أن أشاهد بعض اللوحات؟!

هل هى لوزا حقًا؟!! ·

لم يبخل علّى بكل لوحاته. شاهدتها، لم أر أى لوحة تهمس بفن أو رسام. ألوان وخطوط كيفما اتفق مع بقع لونية بادعاء أنها تعنى شيئًا. لم أبد أى اهتمام. ولكن!! قلت لنفسى ولكن هلى ينبغى أن يكون رسامًا عبقريًا لأصاحبه؟ بالطبع لا. يكفى أن يكون إنسانًا جميلاً أليس كذلك؟! وضعت آخر لوحة برفق على الأرض، وسألت:

ـ وممدوح... ألم نلتق من قبل؟!

أجاب ممدوح وكان ممددًا يشرب فى زجاجة البيرة الرابعة:

ـ محسوبك ممدوح...

ثم قفز إلى الكنبة، وقف، وفرد ذراعيه، وأكمل:

ـ خطاط ومصمم إعلانات.

ثم أردف وهو يشخر:

ـ على الجدران.

فزعت، فنحن... أقصد أنا وأصحابى كنا شيئًا مختلفًا، نحترم ما نقوم به بجدية وقدسية. واجهت النافذة. ازدحام شديد، تحت، عيال تجرى وبنات تسير وباعة، وأقمشة ملونة تنسدل على واجهات المحلات، ومحل فول وفلافل. استدرت، قلت ساخرًا:

ـ ما زال الفول موجودًا يا رسمى.

فاجأنى برده:

ـ هذا ما تركه لنا عبد الناصر...

واقترب جدًا من وجهى وأردف:

ـ ماذا تترك لنا الاشتراكية غير هذا البؤس؟

أدركت أننى مع شخص آخر. آخر بمعنى الكلمة، التصور الوحيد الذى سيطر على أن أدفعه بيدى ليسقط على الأرض لأهتف فى وجهه أنت تافه وحمار ولا تفهم شيئًا لا مصر كانت اشتراكية ولا الفول بؤسها.

هل رأى ملامح وجهى الغاضبة المندهشة؟ فقد تلعثم وكح وقال بفخار:

ـ نحن الآن دولة العلم والإيمان.

مددت يدى ببطء، وأمسكت يده، وسألته أن نجلس فى الركن بعيدًا

عن رائحة البيرة وشخير ممدوح وابتذال نهدا لوزا.

بادرته قائلاً وبرفق:

ـ ماذا تعرف عن المدارس الفنية فى الرسم؟!

أجهد نفسه طويلاً ليعبر عن أنه لا يعرف أى شىء حتى أسماء الرسامين لا يعرفها. من هو بيكاسو أو مونيه أو فان جوخ؟!

أشاح بيده فى وجهى، ورمى فى وجهى ألفاظه القاسية:

ـ أنت من جيل حفظة الأسماء...

ووضع إصبعه فى عينى وأردف:

ـ ببغاوات.

بهدوء سألته مستفزًا جهله:

ـ وهل تعرف محمود سعيد مثلاً أو سيف وانلى.. أو حامد ندا؟ مثلاً مثلاً!!!

قال وشخط بتحد:

ـ أنا أعرف نفسى.. أنا أرسم.. لا يهمنى من سبقنى.. المهم أنا.

أسقط فى يدى، شعرت بالاختناق لماذا تضعنى المحلة فى مستنقع انحطاطها، ولماذا تحوم حولى الوجوه البلهاء بشراسة؟! ولماذا صرت وحدى فى المدينة! كززت على شفتى. بالتأكيد لست وحدى خطر فى ذهنى أن أسافر لعبده فى الإسكندرية، سيضعنى فى عينيه، ويغطينى برموشه حتى أغط فى نوم عميق..

يكتب قصيدة عن الجموع تهدر من أجلنا.... يا اه.....

تنهدت، وقلت محاولاً اقتحام منطقة أخرى:

ـ تعرف يا رسمى، التعرف على الفن يبدأ من أول خط رسمه الإنسان البدائى فى كهف.

نهض ملسوعًا، كأنه يدافع عن نفسه حتى لا يقع فى شركى، وزعق، زعق بكل تحد وخوف:

ــ اسمع يا جابر.. لا تلق على بمنشوراتكم!

تأملت الكلمة: منشوراتنا.. إذن انتهى الحوار. تمشيت فى المكان، كنت أريد مخرجًا، كنت أيضًا أريد أن أخرج من فشلى فى أن أصنع علاقة مع شخص من أول مرة! ثم... هل تأتى لوزا إلى هنا؟ هذه الفتاة الصغيرة.. تماسكت؛ فلا ينبغى أن أنهى اللقاء بشكل ميلودرامى... وقع نظرى على لوحتين متجاورتين، وقفت أمامها: لوحة للسادات ولوحة لعبد الناصر، لوحة السادات مرسومة باهتمام وألوان تزعق بالنياشين التى رصع بها بدلته العسكرية. السادات – فى اللوحة – ينظر لسراب بعيد فى صرامة، لوحة كأنها منقولة عن صورة فوتوغرافية، جافة. ولوحة عبد الناصر غير ما عهد «رسمى» أن يرسم، حين أمسكت اللوحة بين يدى قال رسمى هازئًا حتى من رسمه كاريكاتير...

بالفعل رسم عبد الناصر عبارة عن رأس ضخمة كبيرة وجسد هزيل، كان رأس عبد الناصر به فرح وذكاء وربما إصرار. وضعت لوحة عبد الناصر بجوار لوحة للسادات هل خانته ريشته؟

وضعت يدى فى جيبى بنطلونى – بكل إدراك – وقلت:
ــ أستأذن.

اتجهت ناحية الباب، هو وقف تحت بقعة الضوء، ثم مد إصبعه وأطفأ كل الأنوار بلمسة خفيفة؟

نزلت أتحسس درجات السلم.

وقفت العجوز، فتحت الباب. خرجت. أغلقت الباب بهدوء، شممت رائحة الفول والفلافل والزيت المحروق.

تلفت حولى فى هذه المنطقة بيت «لوزا».. تمتمت:

«الناس يذهبون
والخريف آت»
هكذا قال «لوركا».

لماذا طفرت الدموع من عينى بجوار حجر مصقول لامع؟!

كثيرًا ما أفتقد الشوارع والحارات فأهم إليها، مشيت باتجاه سيدى الششتاوى، استمتعت بشمس «مارس» وهواء «مارس» المنعش. جلست على درجة عالية من درجات المسجد، وارتحت للمساحات الخالية، والسيدة بائعة الترمس والحلبة تجهز مكانها، ما إن استقرت حتى نهضت إليها، أخذت القلة الفخار البيضاء من أمامها وشربت الماء المبترد، ابتسمت السيدة ابتسامة واسعة وبانت أسنانها المذهبة، طلبت بقرشين (ترمس وحلبة)، مددت يدى، أخذت القرشين قبلتهما وهى تردد:

ـ استفتاحك لبن إن شاء الله.

قزقزت الترمس، ومددت رجلى عن آخرهما وجلست فى ظل المسجد والذى يحول الهواء لنسيم عذب تمنيت لو أغرق فيه. جعلت من ذراعى وسادة. تأملت السحب فى أشكالها المتعددة من خيول وإبل، ونساء عاريات كن يلعبن بى، تدفعنى واحدة لأخرى ما عدا سيدة سمينة رجراجة أخذتنى فى حجرها العريان فاستدفأت بها وغفوت.

غفوت ثم نهضت على صوت الميكروفون ينادى لصلاة العصر. طفل مهلهل الثياب اقترب منى، فأعطيته ما بقى معى من ترمس وحلبة. ومشيت مستسلمًا لنسيم عليل.

المقابر تشى لى بالهدوء والخوف، تجاهلت الخوف ومشيت على مهل أتأمل الأبواب الخشبية المغلقة على جثث وتراب وتواريخ. ينفرج شارع المقابر ويصبح عن يمينى مسجد سيدنا الغمرى وعن شمالى المقابر... ياه... ما زال الحجر البنى اللامع والمصقول مدفونًا فى جدار المقابر، يطل منه هذا الجزء الناعم اللامع الغائر!! من يستطيع أن يحرمنى من طفولتى وحواديتها، ذهبت إلى الحجر، كأنه وهو عجينة طرية غرز أحدهم فيه كوعه، ابتسمت للحواديت التى هاجت فىّ، تناقلنا جميعًا ـ أجدادًا وأبناء وعيالاً وستات ـ إن هذا كوع النبى، خرافة بالطبع، كنا نتصور هذا ويفرحنا ونسعد به، ونتلمسه صغارًا برهبة ووجل. وأنا صبى خفت أن ألمسه سألتنى عطيات، الصبية مثلى، محلولة الشعر:

ـ هل تخاف؟

قلت وأنا خائف:

ـ لا.

همست فى أذنى، ولسعتنى أنفاسها:

ـ المسه إذن... بركة.

وتنحت لى لألمسه، وبكل الرهبة والرعب والخشوع مددت إصبعى، لمسته، لم أجد شيئًا مرعبًا، اطمأننت، فردت يدى الصغيرة فى جوفه، أحسست نعومة ودفئًا وأمانًا ورأيت عينى عطيات لامعتين جذلتين، فأجبت هذا الفراغ وهذا الكوع الذى يحط فى قلوبنا الأمان والورع. ابتسمت عطيات، بعدت عنه قليلاً، ورجعت إليه وقبلته، ثم دنت منى و.. قبلتنى قبلة سريعة خاطفة فى خدى. تلعثمت ثم قالت بارتباك:

ـ شاطر يا جابر

كانت عطيات أطول منى، شعرها محلول وناعم وكانت حافية القدمين، وأنا فى قدمى صندل بنى.

تحت هذا الحجر كان خالى يجلس ينتظر أبى ـ سيد ـ عندما يخرج من الحارة السد، ليتلقفه ويرمى فى حجره الفلوس الفضية اللامعة. تحت هذا الحجر كان خالى يجلس يعد فلوس الإنجليز التى سرقها من معسكراتهم.

خالى يتكلم الإنجليزية بطلاقة وعلمنى من صغرى كراهية الإنجليز.

تقدمت بحذر، وأمسكت نفسى متلبسًا بالخوف من لمس الحجر، أم هو خجلى من أن يرانى أحد وأنا الكبير ألعب فى الحجر الأملس فى جدار مقبرة قديمة قدم جدتى. كان أبى يضحك حتى يدمع، ويخلع نظارته ويلمعها فى منديله المحلاوى الكبير وهو يقول لى:

ـ إياك أن تصدق حكاية كوع النبى.. حرام.. وعيب.. وجهل..

لكننى نقلت خطواتى ببطء ومددت يدى بوجل، الحجر مترب جدًا، مسحت برفق، ولمعته بحنو، لمعته حتى صار فى لون الزيتون اللامع، كانت عينا عطيات فى لون الزيتون اللامع الذى قرأت عنه فيما بعد عند «خمنيث» ابتسمت لنفسى فى ارتياح ولمسته بكل وعى وأنا أهمس لنفسى:

ـ كم من عيال من الزمان البعيد لمسوه تلمسته، حتى طفرت الدموع من عينى:

ـ بالتأكيد جدى وجدتى لمسته أصابعهم الفانية.

وقفت، تطلعت للمكان، سأرجع، أطلع قنطرة المدبح، سأترك خلف المقابر الحجر.. الشجن.. الذكريات.. وجوه جدى وجدتى وعطيات، سأطلع إلى قنطرة المدبح.

ضربت حذائى المترب فى الأرض لأنفض عنه التراب، ولحظة أن بدأت مسيرى اصطدمت بصدر طرى ويد مفردة فوق صدرى، لمعت الخواتم الذهبية فى عينى وهاجمتنى رائحة عطر قديم أحبه، التقت عيناى وأنا أرفعها بقلادة من ذهب محلاه بصدر أبيض، رفعت عينى وتمتمت:

ـ أهلاً! توحه!

احمر وجهها فرحًا، دفعت شعرها الطائر للخلف، وتراقص النمش على وجهها. قالت وهى تكتم صرخة:

ـ جابر...

لا أصدق! بحلقت فى وجهى ثم صاحت:

ـ مبروك النظارة الجديدة.

وانقضت يدها اليمنى وأمسكت بيدى اليسرى. لم أسألها عن أخبار زوجها ولا بيتها ولا لماذا تركتنى ذات مساء ودون أن تلمح أنها ستتزوج فى الغد. تأملتها.. باتت أكثر جمالاً وبهجة وملابسها تبين الفتنة والحسن، اشتهيتها بشدة وبلعت ريقى. ضحكت الأنثى وخبطتنى بكتفها وهى تقول:

ـــ تأكلنى بعينيك.

ثم شدتنى بقوة وهى تردد:

ـــ تعال.

أسرعت الخطى حتى سبقتنى. وقفت وأشارت لبيت من طابقين.

ـــ بيت خالتى... هذا بيت خالتى.

وضغطت على يدى ولم تستطع أن تخلص يدها من يدى حتى درجات السلم الضيق، ضممتها من خصرها وقبلتها وتذكرت مشهد فيلم «العزيمة».. سحبت يدها فأذعنت. ضربت باب الشقة بسن حذائها فانفتح، وقالت بثقة:

ـــ ادخل

فدخلت.

هبت من الشقة رائحة بخور، ومررنا على باب حجرة مفتوح من خلاله رأيت عجوزًا بشعر أحمر تترنح يمينًا وشمالاً، شدتنى «توحة».. لاحظت امتلاء أردافها عن ذى قبل، وبسن حذائها ضربت باب حجرة أخرى فانفتح، كان سرير نوم غير مرتب، عليه ملابس وغطاء ومشط شعر وإيشارب، لمت كل شىء بسرعة ورمت به فى أنحاء الحجرة، كانت عجلى، أغلقت الباب بضربة من الحذاء. تنهدت ومصت شفتها السفلى شديدة الاحمرار، جلست إلى السرير وفتحت ذراعيها وهمست:

ـــ تعال.

تقدمت بوجل ونشوة، مر زمن لم ألمس لحمها، تذكرت الحجر اللامع. مدت إصبعى رسمت خطًا مرتعشًا على ثديها، اقتربت أكثر، فلفت ذراعيها حول ظهرى. وارتج المكان عندما سمعنا بابًا خشبيا يرتطم بشدة فى حائط، وقال رجل لآخر بأمر وعطف:

ـــ غير ملابسك بسرعة...

ـ لا يوجد وقت.

لمت صدرها وداست حافية القدمين على الأرض، تقدمت من الباب وفتحته بثقة، ووقفت تتأمل برهة.

ثم قالت كأنها ملكة الكون:

ـ ماذا يا متولى؟!

تقدمت خلفها ببطء أستطلع الأمر.

جلس متولى على الكنبة، والآخر شد الكرسى ولم يجلس، قال متولى وهو ينظر فى عيوننا وكان منهمكًا:

ـ لن أختفى بعد الآن.

فتحت الثلاجة وأخرجت أربع تفاحات. فيما هو يؤكد:

ـ لابد أن نرجع للمصنع.

قسمت تفاحة نصفين وقالت بطريقة تدل على فهمها للموضوع برمته:

ـ ستترك المقابر!

فهمت بعض الشىء. تقدمت وسألته بحرص:

ـ الكلام له علاقة بالإضراب فى المصانع؟!

ـ نعم...

ـ وأنت!!

ـ نعم.. كنت من القيادات المختفية بالمقابر.

ثم هز رأسه مستفسرًا توحه وهو يسأل:

ـ الأستاذ!!

ابتسمت توحه، ووضعت رجلاً فوق رجل، بثقة، بل وأمر:

ـ لا تخف..

قلت لأطمئنه:

ـ أتابع أخبار الشركة.. الاعتصام داخل المصنع ناجح... العمال والمطالب فى الإدارة..

قال آخر ساخرًا:

ـ المطالب فى الإدارة راكبة حمارة!

قال متولى باهتمام وجدية:

ـ تم القبض على «شوقى»، سنخرج للشارع..

سألته بجدية – تقدر الخطورة!؟

ـ نعم... تخيل ياأستاذ.. قدمنا أرواحنا فداء مصر، ويرفضون تحقيق مطالبنا البسيطة.

قال الآخر:

ـ يريدون النقابة التى نجعجع فيها بعض الوقت...

رد متولى بحسم:

ـ لا يا عوض.. يريدونها لأنه أصبح لها دورًا قيادى.. أصبحت تسمع للعمال.. قلت متأكدًا من معلوماتى:

ـ العمال العائدون من حرب أكتوبر مطالبهم عادلة، هم فى غاية القوة والاتزان... رنوت لتوحه، وقلت بقلق:

ـ لكن الأمر لا يعدو... تسوية.. تسوية مالية.

نهض عوض وقال كأنه يلقى بقنبلة:

ـ رجالنا فى «الشون» شموا رائحة الأمن المركزى. قال متولى موضحًا لى:

ـ اعتقلوا «شوقى» لنصبح بلا نقابة.. ونحن لا نحتاج النقابة الآن..

نهضت توحه ومشت وهى تقول:

ـــ أعمل لكم شاى.

عوض قال وصوته يشي بالحزن والحيرة:

ـــ أى تخريب سيكون ضارًا بالحركة!!!

ثم أردف وهو يضرب كفًا بكف:

ـــ الإصلاح الوظيفى للموظفين فقط... طيب... اعملوا لإصلاح عمالى!

ثم رمى نفسه وتمدد على الكنبة. مرهقًا.

تركنا متولى ودخل حجرة ذات الشعر الأحمر.

لم أتبادل الكلام مع عوض الذى كان يبحلق فى السقف، وينفخ أحيانًا فى زهق.

توحه قدمت الشاى. بإصبعين أمسكت شفتها السفلى وعصرتها. خرج متولى مرتديًا ملابسًا أخرى. وهو يردد:

ـــ لا الجلوس فى البيوت أو المقابر ينفع.

وضعت كوب الشاى ووقفت. كما أشارت لى رموش توحه. مددت يدى إلى عوض المستلقى على الكنبة، مد يده وسلم. شددت على يد «متولى» بادلنى الحماس، مددت يدى لتوحه فأخذتنى من يدى ومشينا لباب الشقة، أشرت برأسى إلى الداخل، متوجسًا، فقالت وابتسامة على جانب فمها:

ـــ متولى وعوض أولاد خالتى..

لا تفكر بشىء.

مددت يدى، تشابكت أصابعنا، تمتمت بأسف:

ـــ لا أعرف متى سأراك!

لم نحرق أى شىء يا سيدى

لم نحرق

لماذا؟

نهضت حين انفجروا وانداحوا فى الشوارع بعد أن فاض الكيل ولم ينفذ لهم مطلب واحد.

لكنهم حتى ليلة أمس كانوا يحمون الماكينات والمصانع كأرواحهم. ورديات الاستطلاع من العمال لم تنم لحظة واحدة، كانوا يدافعون عن المصانع والمكن، وقالوا: لن يحميه غيرنا.

انفجروا. وخرجوا للشوارع. هل فقدوا كل حساباتهم! هو مارس ٧٥.

كأننى سمعت الهتافات تعبر البيوت والشوارع وأبراج الحمام، كأن احتكاك أقدامهم بالأرض ولّد هذه الكهرباء التى هزتنى.

ــ لن نسمح لأحد أن يشوهنا.

انفجر المسئول الكبير، وضرب المكتب بقبضة يده فتناثر الزجاج السميك، لكن شوقى ردد بثقة:

ــ لن نسمح لأحد أن يشوهنا.

دسست رجلى فى الحذاء كيفما اتفق. كنت مندهشًا وفرحان، همست لفريد:

ــ كأن الحلم!!

فتحت الباب أواجه شروق الشمس، فوجدت أمى تكنس السطح، وقفتْ نظرت لى، أعرفها عندما يأكلها القلق. حدسها صحيح. آه يا أمى.. كأننى سمعتهم عبر هذا الشارع الطويل الذى يبعد بينى وبينهم.

عندما هممت بالنزول نادتنى بصعوبة بالغة:

ــ يا جابر

تمتمت:

ــ العمال والعساكر يملأون البلد.

آه.. ارحمنى ضغط دمك المرتفع يا أمى. نزلت درجتين، اندفعت خلفى قالت برجاء:

ــ لا تنزل يا جابر.

ونزلتُ.

مضت الأيام السابقة مثل كابوس ثقيل. كان فريد فى إجازة واقترح علّى أن يعرفنى ببعض أصحابه، ودهشت لأن لفريد أصحابًا لا أعرفهم، غير أننى ذهبت فى الميعاد.

هناك تقوم المصانع شامخة، بيننا وبينها عسكرى طيب يقف على بوابة الدخول لا يملك عصا، بيننا وبينها مساحة واسعة نظيفة تلونها كل أزهار مارس البديع، بيننا مسجد ومسرح وساعة الشركة العالية فى برجها نراها من كل الجهات. بيننا مطعم وحمام سباحة وإستاد الكرة. مسافات هى، دائمًا أشعر بينى وبين عمالها المسافات والمسافات.

كنت أقول لفريد إنهم فلاحون ارتدوا ملابس العمال والمسافة واسعة بين العقل والماكينة، فأصر أن ألتقى مع بعضهم فى شارع ضيق مزدحم بالخضروات والفاكهة وعربات بيع الفانلات والبن المعبأ والكاكاو المغشوش. شارع يقتلنى بضجيجه وازدحامه، ليس لى فيه سوى ذكرى أبى فى بداية عمل المصانع حين كان يرسم صورًا لأحمد عرابى ومصطفى كامل ويبيعها بملاليم ويحلم ببناء بيت على نهر. ليس لى فيه سوى ذكريات يحكيها أبى عن إضراب العمال سنة ٤٧ حيث قوبل العمال بوحشية وضرب وعنف لم يشهده التاريخ من بعد.

ولما أصبحت على باب الحديقة كانت إفراج تلهث خلفى:

ــ كلم أمك يا جابر.

ابتسمت لها، واختفيت داخل نفسى وفى الحارة المجاورة حتى لا يهزمنى حب أمى أو عطف إفراج.

كانت وجوهًا طيبة ومألوفة: ثلاثة رجال تجاوز كل منهم ثلاثين عامًا، عاملوا فريد باحتزام زائد ومعرفة قديمة، عرفهم علّى وكأنهم يعرفوننى. شربنا الشاى، ودخنوا الشيشة، ثم تكلموا. وصفهم فريد بأنهم «جدعان»، وواصلوا الكلام. قلت:

ــ مشكلة وظيفية إذن.

قال النحيل موافقًا:

ـــ نعم.

اعترض ذو الشارب الكث، وكاد يقلب علينا الترابيزة وهو يزعق:

ـــ لا يا سيدى.. إنها تناقضات قديمة.. مطالب متراكمة.. معاملة العمال بتدنى.. تسوية حالتنا المالية.. حق... مشكلة حق.

مشكلة حق! لكن الوراقة تعيش الهدوء، المقاهى مفتوحة والرجال يجلسون على الأرصفة يدخنون الجوزة ويلعبون الورق، ولا يستمتعون بشمس مارس. توقف المطر منذ أيام، ابتسم أبى بسعادة مصرى قديم وهو ـــ بنظره الذى كف ـــ ينظر للبعيد ويتلو على:

ـــ مارس... وأمشير...

الآن موعد زراعة البطيخ والشمام، وتزرع البسلة، ويزرع الفلفل والباذنجان، وتورق الأشجار، ويظهر الهدهد فى السماء.

سكت هنيهة ثم سألتنى:

ـــ هل ظهر الهدهد فى السماء يا جابر؟

لا يا أبى، انقلبت كل التواريخ، انتهى زمن الزرع والحصد والمواعيد وانتظار النيل وحسابات الشمس، كل شىء الآن ينجز فى «الصوبا» منتجًا أبشع الطعام وأردأ المذاق. لا يا أبى. لم يعد للفصول أهمية، ولا للحياة طعمها. ليس سوى المطر الذى يغرقنا فى أوحاله، هرعت النسوة فى الحارات الضيقة لتسوية الطين أمام الدور ذات العتبات الواطئة.

لكننى رغم ذلك أحسست بشىء مختلف اليوم، ولاحظت بعض الشباب يهرولون، والبنات، وسمعت كلمة «العمال» تتردد. توقفت عند دكان بقالة، لفت نظرى عدد من الرجال يتحدثون بحماس عن الشركة.

سألت وأنا اشترى علبة كبريت:

ـــ ما حكاية العمال؟!

قال رجل بفرح:
ـ هاجوا منذ ليلة أمس يا أستاذ.
ـ أعرف.

رجعت بالأمس، وكانت النقابة تعج بالعمال، ووردية الساعة الحادية عشرة ترفض دخول المصانع.

النقابة تموج بالشخوص والأمن والزعيق والتساؤلات. وسؤال يطرح نفسه على كل لسان:
ـ أين شوقى؟

التقطت أخبار شوقى وعرفت أنه معتقل فى طنطا، ولذلك يفكرون بجدية بأن ترجع الزعامات المختفية فى المقابر وتشارك فورًا.

تنبهت، ورددت بين نفسى:
الزعامات فى المقابر!!
سألته توحه: أستترك المقابر؟
هزنى فريد بقوة:
ـ هل سرحت؟
فى المقهى قال فريد:
ـ الديموقراطية.. هى ما نحتاجه.
زعق النحيل:
ـ الديموقراطية مثل المحاكم يا أستاذ
لا تنتهى قضية.
يومها همست لفريد بهاجس يخصنى:
ـ مطالب ضيقة الأفق.
سخر منى فريد وهو يشعل آخر سيجارة من العلبة:
ـ ماذا تريد منهم؟! يطالبون بالحكم! أو يرفعون شعار ياعمال العالم اتحدوا!؟!

استأذن ليشترى علبة سجائر، واستأذنت لأرجع لحجرتى فوق السطح.

أدرت زر المذياع لأسمع البرنامج الموسيقى، وأنا أتهكم على نفسى قائلاً:

ـ كم أنا برجوازى صغير.

وضعت علبة الكبريت فى جيبى، وهرشت رأسى، وتوترت، لاحظنى البقال فهمس لى محذرًا:

ـ لا تذهب لشارع البحر يا أستاذ جابر.

فتمتمت مثل تلميذ خائب:

ـ لا لا..

عندما تركت الوراقة خلفى كان للحياة دبيب آخر. شبان يجرون باتجاه شارع البحر، خبطنى شاب بشدة، وصاح بسعادة بالغة:

ـ عفوا يا أستاذ.. سنروح شارع البحر.

هتف آخر وكان يجرجر الشبشب بقدميه:

ـ الشركاوية فى الشارع يا بيه..

أسرعت الخطى، شحنت المحلة بالحماس وفضول مدهش للذى حرك الصمت. رأيتهن نسوة يجرين حافيات باتجاه شارع البحر، أسرعت الخطى، وهالنى ما رأيت بعد ذلك. حشود رهيبة، لهم سحنة واحدة وعروق تنتفض فى لحظة واحدة حين يهتفون ضد الإدارة:

تختلط الهتافات وتلوح الأيدى، انحشرت بينهم، عجوز يلهث يجر نفسه جرًا، ولا يستطيع الهتاف، يلوح بيده فقط، ويلهث. دفعنى شخص بعنف، كدت أسقط أرضًا، أمسكت بذيل جلباب أمامى، نهضت على ركبتى، اتجهت للداخل، أحاول أن أكون بينهم ولكن عند الكوبرى السفلى استحال المشى، كأنه الرحم ومنه يندفعون، اهتز كيانى حقًا لمشهد يذكرنى بالثورات والشعوب والأفلام، وكلام الكتب أراه الآن متجسدًا ولكن فى أجساد نحيلة ورغبة عارمة فى تحقيق نفسها.

كان يمشى بجوارى خالعًا قميصه، وجسده لم يأبه لبرودة مارس ويقول لى وهو يتهدج:

ـ حصلنا على الإعدادية يا أستاذ وحاربنا فى أكتوبر يا أستاذ.. وحين رجعنا، وجدنا من لم يحارب نال العلاوات والترقيات..

حاولت أن أصل للنقابة. بعض الناس فى الشرفات يتفرجون على المشهد بهدوء، رأيت شخصًا متكئًا على حافة الشرفة وبيده كوب شاى. ولكن بعد لأى عبرنا الكوبرى السفلى، اصطدم بى عوض، أمسكت بيده.

حاولت أن أذكره بنفسى، لم يتذكر. قلت له لعله يتذكر:

ـ مدام توحه.

فتذكر، فسألنى، وهو يحاول فى كل لحظة أن يترك يدى ليواصل زحفه مع الآخرين:

ـ ماذا تريد يا أستاذ؟!

لم أخطىء كلمة أستاذ التى يرددونها، لكنى قلت بلهفة حقيقية:

ـ ماذا حدث؟

وقف تمامًا، وكان العرق يتصبب من جبينه لعينيه، تأملنى قليلاً، عض شفته ثم قال بثقة:

ـ تريد أن تعرف!

أو مات برأسى وقلت:

ـ أكيد. شدنى من يدى. وقال بحسم:

ـ إذن... تعال.

جرى بعكس الجموع، جرى مثل سهم، جريت خلفه، اقتحم مساكن المديرين، كان بعض عساكر الحراسة يهرولون، شدنى من يدى؛ فعبرنا البوابة بين جماهير تهتف ضد الإدارة .

وجماهير تصفق بحماس وتصفر بلا توقف، ثم دفعنى دفعة خفيفة فى ظهرى، فرأيت مشهدًا غريبًا: حبالاً معلقة بين أعمدة النور على الجانب الأيمن معلقة بها الفراخ والديوك الرومى، عددًا هائلاً من الفراخ والطيور كأنهم استولوا على مزرعة، وبينما أتفرج مذهولاً من كمية الطيور، اقترب منى رجل نحيل يرتدى بدلة العمال، حافى القدمين، ابتسم كطفل وأشار لى للناحية الأخرى:

ـ انظر يا سيدى. على الشمال بين أعمدة النور الحبال معلق بها أقراص من الطعمية تكاد لا ترى. تمتم الرجل النحيل.

ـ أقراص... طعمية.

هممت بالمشى فأمسك بيدى وقال بهدوء وشجن بالغ:

ـ لم نفعل أى شىء يا سيدى يسىء للبنى آدم أو الطير.

الطيور تتدلى مذبوحة معلقة من أرجلها، وقد تهدلت الأجنحة وبقع الدم الجافة قاتمة، ديوك رومى بأحجام كبيرة جدًا، ربما رآها العمال للمرة الأولى فى حياتهم، بعضها منزوع الريش مشوه وبعضها بكامل ريشه. جمعوا الطيور بسهولة من أعشاشها الخشبية الفخمة خلف الفيلات، والتزم الخدم المذعورين بالحوائط، تشجع الرجل النحيل وقال:

ـ لم نفعل أى شىء يا سيدى يسيىء للبنى آدم أو الطير، هم.. هم ياسيدى الذين أساءوا إلينا.. نعم يا سيدى.. اللحوم الحمراء والبيضاء مكدسة فى حدائقهم ونحن فى طوابير الجمعيات التعاونية من أجل زيت لا يؤكل به.

اندهشت لتدفقه فى الكلام، فأردف هو:

ـ لم نفعل أى شىء يا سيدى يسىء للطير، لكننا نقول للبنى آدم هذا ما تأكله أنت... وهذا ما نأكله نحن....

سكت، ثم قال وهو يضغط على كل حرف:

ـ يا سيدى.. لا نريد مشاركتهم الطعام... فقط نريد أن نأكل.

وفجأة وصلت موجة كبيرة من رجال الأمن المركزى تطيح بكل من يقابلها، كان هناك ذعر على بيوت المديرين والفيلات الخاصة بهم، وأمام العصى انسحبنا واكتفوا بالهرولة وراءنا، لأن هدفهم الوحيد كان خروجنا من المساكن، وبدفعات الموج البشرى الهائل خرجنا من تحت الكوبرى السفلى، وكانت الجموع ملتهبة بالحماس والفزع والشجاعة والخوف.

استوقفنا حرس العمال فقد أطلت النيران من مبنى السنترال، احتشد الناس فى صمت عجيب، النار ستأكل مبنى السنترال ورغم هذا لا يسارع

إلى المبنى، الأمن المركزى ولا المطافىء ولا المسئولون!

دق قلبى بعنف، شعرت بالخطر يدق أبواب المحلة. النار تندلع فجـأة من حين لآخر، تطل من الشبابيك معلنة عن نفسها.

جرى عوض إلى، واجهنى، زعق وهو يخبط رجليه فى الأرض زاعقًا ولاطمًا وجهه بيديه:

ــ لم نحرق... لم نحرق...

حاولت أن أحتويه، لكن صرخة عالية أخرى جاءت:

ــ الشون يحترق...

استدرنا جميعًا نهرول، نتخبط ببعضنا، بحثـت عـن يـد عـوض، وجدتها.. جررته خلفى، انتابنى وجع فى صدرى مفاجىء، تحاملت قلـيلاً، انحرفت لأول مقهى ورميت نفسى على كرسى، أحضر صبى المقهى دلـوًا مملوءًا بالماء وصب فوق رأسى بكوز صـغير. بللـت شـفتى، التقطـت أنفاسى.. آخرون على المقهى مرهقون، وبعضهم أصيب بجروح، ووجدت على الترابيزات قطنًا وشاشًا وزجاجات طبية، رجال تطبب وشبان يتقبلـون الحالات الجديدة. إسعاف!! مركزًا للإسعاف!!

لم يستسلم أحد للجلوس فقمت مع من قام، وجرينا باتجـاه الشـون، الشارع أكثر اتساعًا باستثناء عربات البوليس التى تمرق بجوارنا ونهـرب منها إلى الرصيف، جرينا بقوة حتى طالعتنا ألسـنة اللهـب، هنـاك عنـد الجسر، عند قضبان السكة الحديد، وقفنا على السور الحجرى المرتفع عن الأرض ورأينا الجرار وقد استسلمت المقطورة وبها القطن لنار مسـتعرة، النار تلتهم القطن الخارج من المحلج، وعيوننا وصلها لسع النار. وبينمـا هدنى الحزن وجدته بجوارى – الرجل النحيل – يقول وهـذه المـرة كـان يبكى:

ــ لم نحرق أى شىء يا سيدى...

ــ لم نحرق أى شىء...

على المنصورى
وأبو قردان
وشخص ثالث

ـ طببنى يا على

فجلس بجوارى كأم ودود. مسد شعر رأسى: وهو يهمس فى رجاء وتساؤل وحيرة:

ـ لماذا لا تنام يا جابر؟

وجه على لم تفارقه الطفولة منذ عرفته. وحين يتوتر أرى حبات العرق فوق جبينه. صورة «جيفارا» أصابتها الشمس والسنون فبدت باهتة.

ـ نم.. نم.. أحلم أنك سعيد.

تعبت كثيرًا. ومرت أحداث «مارس» مثل تخيل جميل، مجرد سيناريو لم يتحقق، وانتهى بكابوس مفزع. حلم بدأ «بشوقى» وانتهى باعتقاله، وفرد الكابوس جناحيه بظل كئيب، وقضى على بقية العمال بالسجن، ثم عادت صافرة الشركة ودارت العجلات من جديد، وعاد العمال لمصانعهم، تركوا غيطانهم وريفهم ورجعوا أمام الآلة، ولم ينسوا تمامًا شوقى والآخرين.

ـ أنت رهيف.

ثم ضحك وهو يداعبنى:

ـ الرفاهة تقصيك عن السياسة.

نظرت له فى استفسار؛ فرد على كأنه يحكى حدوتة قبل النوم:

ـ كنا نخرج فى المظاهرات، نخرج بكل حماس، نتصدى لتحرشات الجماعات المتطرفة وأحيانًا يضربوننا بالجنازير. وكنا نتلقى ضربات الشرطة باستخفاف.

تنهد وأكمل:

ـ جنازير.. وهروات فوق أجسادنا...

ونجرجر زملاءنا على الأرض لإنقاذهم.

بالفعل ترهقنى هذه الصور، وأتصور أنها بشعة، أصبحت متأكدًا الآن من رومانسية حلمى الثورى.

بالنسبة لى على الأقل. كنت حين الانتهاء من مجلد سياسى نظرى، يقول لى فريد: المهم التطبيق. كان ينفذ صبره وهو يردد: الواقع المختلف. فأقول له ماركس كتب عن عمال ألمانيا، والعمال الروس هم الذين طبقوا.

أخذنى «على» فى حضنه، ربت علّى وتمتم:

ـ لا تقلق

ونهض، تجول فى الحجرة، ثم أخذ يقول:

ـ بعد مظاهرات الطلبة، وبعد إلقاء القبض علّى رمونى فى زنزانة... هذا ليس سيئًا... ولكن... بعد انتصاف الليل كان عسكرى يدخل الزنزانة وبيده خرطوم المياه... يفتح الماء البارد على حتى يغرق الزنزانة فلا أستطيع النوم أو الجلوس... كل ليلة... كل ليلة ...

تعرف يا جابر... كنت أواجهه بابتسامة، فيزعق ويرش الجدران بالماء البارد، وملابسى وأرض الزنزانة، وأضحك ويخرج فى حالة هياج...... أعرف كل هذا نفسيًا يا جابر....

أشعل وابور السبرتو، ووضع براد الشاى الصغير الأزرق، وواجهنى قائلاً حقيقة واحدة:

ـ لا تستطيع النوم

نهضت جالسًا ثم وقفت:

ـ نعم يا على.. مجرد وجود «على المنصورى» بجانبى يعطينى الأمان، واسترجع الثقة فى أشياء عديدة صوته الهامس يحول العالم إلى هدوء. ابتسم سعيدًا:

ـ ها... وقفت وشددت طولك.

ـ نعم.

خلعت جاكت البيجامة وأنا أردد:

ـ سأخرج معك يا على.. سأخرج معك.

شققنا الحقول طولاً.

نظرت خلفى. أنا فى وسط الخضرة الآن. هنااااك فى البعيد، بيتنا لايزال أبيض، وحجرتى ما زلت من هنا أراها. أهمل تمامًا ما بين الحقول بيتنا... أهمل الكناسة وشارعًا ترابيًا وأكشاكًا من خشب وأسلاكًا كهربية تلتف عليها خيوط الطائرات الورقية المهشمة والتى تتدلى ذيولها من سنين. لكنى أرى حجرتى من هنا بالطابق الثالث لا تزال، دخلنا فى عمق الحقول. وفى البعيد بيتنا، صار نقطة لكننى أحصرها وأتابعه.

وقف «على» الدقيق الحجم بجوار شجرة غليظة الجذع وهو يقول:

ـ سأريك بعضًا من مهارات الطفولة.

وأخذ يتسلق شجرة توت ضخمة. فى منتصف الشجرة أسقط حذاءه من قدميه، وأكمل مثل قرد.

اختفى بين الفروع، ثم أطل بوجهه، وقال وهو غير سعيد:

ـ التوت ما زال أخضر

قلت له بصوت عال:

ـ بعد أسبوعين سنأكله... فى شم النسيم...

قال بصوت أعلى:

ـ فى شم النسيم سنركب مركبًا فى نهر «محسن"،وننزل الجزيرة، ونأكل الفسيخ..

قلت ضاحكًا:

ـ محسن ابن البحيرة.. وليس ابن تاجر.

جلست ومددت رجلى. قال على:

ـ سأنتقى التوت الناضج لك.

ثم بص علّى من خلال الأوراق الخضراء، وقال كأنه يأمرنى:

ـ لا تجلس هكذا.. اجر وراء الفراشات.

أعجبتنى الفكرة، فنهضت، وجريت خفيفًا هنا وهناك، روعت بعض الحشرات الهائمة. لكننى لم أجد الفراشات التى يحدثنى عنها، ولا أعرف كيف كنت أبحث عن فراشة يلتمع فيها الأصفر والأحمر.

صحت مثل طفل:

ـ لا أجد فراشات.

ضحك بصوت مرتفع جدًا. لدرجة أن طربت له الأشجار، فاهتزت فروعها وأوراقها، وتناثر فوقى التوت، وحدثت التماعة عجيبة بين شمس هادئة وأراض مروية بماء كأنه الفضة. تملكتنى فرحة طفل وأخذت أتقافز لأمسك بدوائر ذهبية دافئة أراها الفراشات، فأنادى:

يا فراشات.. يا فراشات.. ارمى لى حلم
يا فراشات...
ارمى لى أغنيتى يا فراشات...
اغمرينى بالدقيق الأبيض، لأسبح فى فضاء أبيض..
يا فراشات.. امنحين ألوانك لأستدفىء..

ضحك «على» فى صفاء، فتجمعت العصافير فى أسراب تطير تدور تحلق ترفرف حوله، فأتى «أبو قردان» الطائر المصرى القديم ينط باتجاهنا، يحرك رقبته الطويلة ورأسه كأنما أدهشته طفولتنا، ثم وقف بجوارى تمامًا. وأخذ يراقب «على» ويراقب، وأخذ يتمشى فى مكانه كرجل عجوز يستنشق الهواء فى دعة، فقلدته واستنشقت الهواء، وفردت ذراعى، واتسع صدرى لمزيد من الهواء.

ركنا بظهرينا لشجرة التوت الضخمة.

كنا نلهث من فرح داخلى يضغط على قلوبنا بشدة، وأخذنا نلوك التوت الذى خلت أن له طعم فواكه العالم. بامتنان قلت له:

ـ أشكرك يا «على» .

أعرف أن «محمدًا» قال له إنى تعب، وأعرف أن «محمدًا» يفكر فى، ويتوق لحجرتى فى ليال كثيرة. لكن محمدًا تأخذه همومه ومشاغله وطموحاته. أعرف أن «محمدًا» قال لـ «على»، وأعرف أن «عليًا» ركب سطح أول قطار بطريقه للمحلة.

«على» يقطع تذاكر القطار، لكنه يسطح. فوق سطح القطار ينام على ظهره.

أتسابق السحب يا على!!

لا يرى سوى زرقة تأخذه لبياض يأنس له، ينهض يقف مباعدًا بين ساقيه هاتفًا:

ـ أنا على المنصورى.

يزعق..

ـ أنا.. على...

لا يسمعه سواى.

طبطب على ظهرى، همس:

ـ أنصحك يا جابر.. لا تفرح جدًا... ولا تزعل جدًا.

قلت له:

ـ إننى والعالم مفترقان.

أخذنى من يدى وسرنا الهوينى بجوار ترعة تقطع طول الحقول بالعرض.

ـ أنت رهيف... كن نفسك...

ثم وقف وهو يتأملنى باستغراب وأردف:

ـ ماذا كنت تريد؟ للعمال عالمهم!

وحدثته فى شجن عن بيتنا وحديقتنا الناشفة، وتوحه، والحسناء التى أتزوجها، وعن أمى وإفراج والكتابة التى تعذبنى، فابتسم وقال:

ـ والله يا جابر عذابات طيبة..

أخرج زجاجة قطرة العين وقطر فى عينيه، وهو يقول:

ـ لكن أنصحك أن تبتعد عن أشواك توحه.. أنت طيب، ستلتقى ببنت طيبة.

ابتسمت، وقلت معلقًا على قطرة العين:

ـ العين يا «على» هى العالم..

لابد أن نحافظ على الرؤية.

من هنا لم أعد أرى حجرتى. غابت عنى.. هل بعدت عنها أم هى التى تركتنى!

تقافزت مكانى مثل رياضى قديم. ضحك على وسأل:

ـ ماذا تفعل؟

قلت وأنا أحرك ذراعى لأعلى وأسفل:

ـ لا أريد أن أتيبس.

سكت. وقفت. ثم قلت لـ «على»:

ـ أتعرف.. أريد أن أموت فجأة!

اقتربنا أكثر من شريط الترعة، كنت أجمع النعناع، أخذنا ندعكه، ونشمه ونأكله أيضًا.

ثم وقف «على» فجأة وقال لى:

ـ هل تستيطع أن تقفز معى هذه الترعة؟!

ـ كانت واسعة قليلاً سألته، لأنبهه:

ـ هل هى نهير صغير؟

ـ يعنى.. نهير.

قال وهو ينظر إلى الغروب حيث الشمس تزحف ببطء زاهية فى ألوانها الذهبية.

قلت لأؤكد له شجاعتى:

ـ سأقفز.

ـ أنا أيضًا.

ثم حط بجوارى أبو قردان، يغوص في بياضه الناصع، وكأنه بص علّى.

قال «على»:

ـ علينا أن نرجع للخلف ثم نتقدم ونجرى بكل قوة .. ونقفز باندفاع حتى نعبر.

ورجعنا للخلف. مد يده اليمنى ليمسك يدى اليسرى لحظة القفز، سحبت يدى.

قلت:

ـ كلا نعوق بعضنا ..

ضغط على يدى، وقال بإصرار طفل:

ـ هذه هى المحاولة.

بقوة جرينا، واندفعنا.

ونحن نقفز معًا النهير كان خلفنا «أبو قردان» يطير متأنيًا، يرفرف حولنا بجناحين قويين بحركة بطيئة فكان يمروح لنا الهواء الذى يلامس

الجبين بنسمة رقيقة وأحسست كم أنا خفيف. أسبح فى نسيم، وكان «على» يحرك قدميه كأنه يعوم فى ماء. «أبو قردان» حلق أحيانًا فوقى، وأحيانًا فوق على، والنهير يلتمع مثل قطع الذهب المتناثرة فوق لوح من البللور، فيما يتقافز السمك عاليًا يكاد يلمس رجلى «على"سمكة حاولت أن تفقأ عينى، تفاديتها، والحشائش على جانبى النهير شديدة الخضرة، لمحت زهرة زرقاء مثل نجمة بين الحشائش، لحظتها تمنيت لو أهبط إليه، لكن يد «على» تطبق على يدى هل سمعت «على» يغنى ربما، لكننى أكملت الأغنية

«حبيتك.. بالصيف..
حبيتك.. بالشتا..
وعيونك الصيف..
وعيونى الشتا».

ضحك «على» عاليًا، زعق وهو يقول:

ــ الهواء نقل صوتك لى كأنه صوت فيروز..

ولمحت بعضًا من زهيرات صفراء كانت دقيقة وواضحة وشممت رائحتها التى لم يشمها «على». كان علينا أن نقطع المسافة بتؤدة وثقة ودون إجهاد، نعرف أن الخوف أو التوتر سيوقع بنا فى وسط النهر، لكننى تشاغلت عن الخوف بمتابعة قوقع البلهارسيا وزعقت ليسمعنى «على»:

ــ البلهارسيا ابنة الكلب.. قاتلة الفلاحين.. والشعب المصرى.

أمسك يدى وهو يحمسنى:

ــ سنصل.

رفرف «أبو قردان» بشدة فدفعنا الهواء دفعة قوية، قلت «لعلى» مازحًا وشدة الهواء تفوق صوتى:

ــ لا أخاف الموت غرقًا.. أخاف البلهارسيا.

ضرب «على» رجليه فى الهواء وهو يقول:

ـ علينا أن نصل قبل الغروب.

فارتطمنا بالأرض. والتمعت الشمس باحمرار وبرز من خلفنا تمامًا المعبد المصرى القديم، ومضت نقوشه فى عيوننا، وهمت الطيور بالطيران فابتسم الجالس أمام الميزان وكانت الروح «كا» تحط هادئة فى أمن على كفة الميزان والقلب يضحك سعيدًا بصوت نسمعه. وفى هذه اللحظة خرج إلينا الإله (بتاح) الذى عرفته من أول وهلة تمتمت:

ـ بتاح

فانفتح المعبد عن آخره ورأيت الأميرة الرشيقة بجوار الفرعون، الأميرة أكثر بهاء وفرحة، نهداها يطلان على العالم فيضيئانه، وأطللنا على الزخرف. سأل على:

ـ منف؟!

طارت علينا النقوش، الأوز، مفتاح الحياة، قرد الوقت، أنوبيس، وانتشرت القطط فى المكان لكن بوداعة وألفة، وهبطت نجيمات السماء الزرقاء ترفرف حولنا كعصافير زرق صغيرة. تهلل «على» فرحًا:

ـ نجيمات السماء الزرقاء.

وأخذ فى الرقص بين النجيمات، أخذ الفرعون أميرته واختفيا فى تابوت، لكننى أحسست دفئًا من حب جارف يغمرنى. سمعت همسات الأميرة الأنثوية والدفء يخرج من فمها ليغمرنى. وتحول «على» من الرقص إلى الخطوات بإيقاع فرعونى، أو كأنه، مستعملاً يديه، وواجه السماء بكفيه. لاحظ دهشتى، غمز بعينه وقال:

ـ أنا لاعب جمباز قديم.

ثم قفز للخلف مائلاً بجذعه، جاعلاً بطنه قوسًا فى مواجهة السماء، فتساقطت منه أقلام الرصاص وبعض الأقلام الملونة، وزجاجة قطرة العين وجراب نظارته التى لم يحضرها. مددت يدى خائفًا عليه لكنها – الأميرة – وقفت فوق التابوت، لوحت لى بيدها، ثم كأنها تطير فوق الأرض، ارتج

منها النهد وهمست وقد سمعتها كأنها تهمس فى أذنى:

ـــ تعال.. تعال.. تعال...

ووقفت على حافة النهير، وهمست:

«أريد أن أنزل الماء..

أغتسل وترانى.. ترانى وأنا أغتسل..

سوف أسمح لك أن ترانى

جميلة..

سأنزل إلى الماء معك.. وأحضر لك سمكة».

زعق «على»

ـــ هب..

وبقفزة فى الهواء رائعة عاد للأرض واقفًا. وبيده اليمنى أمسك يدى اليسرى، فقد ارتعد، واتسعت عيناه عن آخرها، وتمتم هامسًا لى:

ـــ أرأيت...

اختفت الأميرة. فى النهير أو فى التابوت.

همس «على»:

ـــ إيزيس أخذت زينتها وتجلت لنا...

عينان رائعتان، وصدر مفوح على قمرين مستديرين تركع أمامهما العين البشرية، لكن العين الفرعونية فى رقبتها حلية ورقية.

وتجاوزتنا.. وعبرت. فزعقت مناديًا عليها:

ـــ إيزيس...

هزت رأسها آسفًا، وقد سمعت صوتها بلغة لا أعرفها الآن، لكننى أفهمها من زمان:

ــ ألملم أعضاءه..

قدرى...

وخرجت.

فجلسنا على قدمى التمثال الفخم، ولون الشمس الذهبى أمسى لونًا نحاسيًا قاتمًا فبكى «على» . ونشج وقال:

ــ قلت لك عذاباتك طيبة..

أنت لا تعرف حالى.

ركعت على ركبتى أمامه بلهفة أم وأخت سألته:

ــ ما بك يا على؟!

أخرج من جيبه حافظة بطاقته الشخصية وفتحها، وقربها من عينى، فبانت صورة فتاة جميلة ذات ابتسامة غامضة. قال:

هذه نادية.. نعم. سمعت عنها كثيرًا.

أردف:

ــ كانت حبى الأول

نهض، دفع بيده كل الرسوم الجميلة، فطارت واختفت فى ظلمة، وسمعت بعض النحيب. قلت فى نفسى: ليس فى الغرب إلا النحيب. أكمل «على»

ــ قطعنا العالم طولاً وعرضًا.. وشربنا الكتب.. ومارسنا حبًا لم يعرفه سوانا... انظر...

وقلب حافظة بطاقته، فبانت صورة شاب فى عمرنا شبه لى أنى أعرفه، لكنه فى الصورة كان يضحك بطريقة زاعقة. وأردف «على»:

ــ هذا صاحبى.. عرفته عليها لنصبح ثلاثة أصدقاء...

نظر لى نظرة أسف وهو يسألنى:

ـ هل ذكرتك بالكاتب ديستيوفسكى؟

لم أرد. وهو أردف:

ـ فأخذها منى إلى البحر.. ولعبت معه لعبة الحب، فخلعت له خاتمها.. وصارا عاشقين.. وأنا وحدى ..

ركن رأسه على صدرى. وقال:

ـ إيزيس تبحث عنى

إيزيس تريد أن تلملمنى..

وانهمر فى بكاء مرير.

أخذته فى حضنى وأنا أطبطب عليه:

ـ أرجوك يا على

لا تحزن جدًا.

و«أبو قردان» تكوم أبيض فى الركن.

ولا عزاء لأحد

فى الحارة الضيقة التى تفضى إلى الوراقة قابلتهما: أبى وزينب النوبية. وأبى يتعلق بذراعها. وهى تجره جرًا وبحماس تصحبه. لما رأتنى ابتسمت وتلألأت أسنانها البيضاء. وقفت أمامهما:

ــ إلى أين يا أبى؟

وجهه هادئ، إنما فى شرود. رد على بصوت يشى بحزن:

ــ الزغبى .. مات.

ــ الزغبى!

ثم قال وهو يهز رأسه أسفًا:

ــ تعيش أنت.

قالت زينب بصوتها، ولكنتها المميزة:

ــ صاحب واجب يا شيخ سيد.

أخذته من ذراع زينب، فأوضح لى:

ــ مد.. حتى نلحق الدفن.

سرت منصاعًا له. أنا أيضًا أعرف بيت الزغبى، زرته مرة حين كان قعيدًا. من زمان. هناك عند قنطرة المدبح .. عن يمينه شادر خشب، والبيت الصغير به دكان صغير، وبقال فى الدكان، البيت الصغير يسكنه الزغبى وزوجته.. و.. فقط. هل له أهل؟ لم أسأل أبى، وكأنه أحس بحوارى، فكأنه يرد على قال:

ــ واجب.

صمت طويلاً.

صعدنا منحدر الوراقة، وقال مكلمًا نفسه:

ــ أم لأنه ماسح أحذية

لا يعبره أحد؟!!

بدأ حزن الموت يزحف إلّى. وأدركت أن انصياعى لابد أن يكون مصحوبًا بالرضا. قلت لأبى بصوت متحشرج:

ـ الزغبى واحد منا يا أبى.

وتعثرت فى حجر، قال أبى محذرًا:

ـ خذ بالك.. نحن أمام مقهى الحسينى..

مطب ثم غطاء مجارى.

كنت راجعًا لتوى أحلم باسترخاء الظهيرة. لست مجهدًا، ولكن مشاركة المناسبات ترهقنى وأنا لا أجيد أساليب المناسبات المختلفة. أبى وأمى يقومان بالواجب فى الفرح والعزاء. قال أبى كأنه يخفف عنى:

ـ لو كان له أهل ما أخذتك معى..

واجب يا جابر.

بيت الزغبى، جئته مرة واحدة، حين كف عن مسح أحذيتنا فى حجرتى فوق السطح بشلل أقعده. يومها رائحة الصنان. نعم.

وصورة عبد الناصر، وسخرية من طرد السوفيت «وعندما تركته بعد يوم طويل زحف على حصيرته وهو يطل على من بعيد وهو يغنى مرددًا: «زورونى كل سنة مرة...

حرام تنسونى بالمرة.........»

ولكنى نسيت. نعم يا زغبى. نسيتك. وكنت تسامرنا وتمسح أحذيتنا فى الحجرة التى فوق السطح. أيامها كان الصحاب يتفجرون حياة وصخبًا ومرحًا رغم كل شىء ونسينا كل ذلك الصخب والمرح، فكيف لا ننساك يا زغبى؟

أحمل هم رؤيتهن يبكين، ويلطمن، ويعددن. وهذا السواد الذى سأراه

أمام البيت متجسدًا فى نسوة نحيفات عجائز – كما تصورت – وصراخ الفراق واللوع. سأحتمل على أى حال.

أصبح أبى هو الذى يجرجرنى قنطرة المدبح. شادر الخشب .. دكان البقال. عرفته. لكن .. صمت شديد يخيم على المكان. وقفنا لحظة أمام البيت. خرج البقال من الدكان. تقدمت مسرعًا إليه.

ـ هل تم دفنه؟

ـ لا يا أستاذ.. المغسل جوه.

يا للصمت الذى يحط على المكان! سألته مترددًا..

وزوجته.... جوه!؟

قال باستغراب:

ـ زوجته مشت من زمان..

زمان الزمان يا أستاذ

لم نعرف للزغبى أهل.

وتقدمنا. دفع الباب الخشبى بيده:

ـ تفضلا..

بسمل أبى، وردد بعض الهمهمات التى لم أفهمها. قبل أن أنظر باتجاه باب حجرة الزغبى. انتبهت إليهم: على اليمين أمام دورة المياه. الزغبى عريانًا ممدًا على طاولة من خشب طويلة. أرتجف. ثلاثة رجال حوله، يغسلونه فى صمت. رجل عجوز نحيل طويل ينحنى ويملأ الكوز بالماء ويصب.

«بسم الله الرحمن الرحيم..

قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد ولم يولد* ولم يكن له كفوًا أحد* قل هو الله أحد. الله الصمد..*

أخذنا أبى من يده ودخلنا حجرة الزغبى. خرج صرصور مندفعًا باتجاهنا، سحقته بقدمى وأنا أعبر العتبة. ورائحة الشيح والصابون، حتى للماء الساخن رائحة. كح أبى فانشرخ الصمت.

حجرة الزغبى. الصنان. الصندوق. صندوق الزغبى الذى فتحته يوم زرته من زمان، وكان يحفظ فيه عالمه وأحباءه: ليلى مراد بضحكتها الواسعة، يومها هو القعيد تمايل بالغناء:

ـ «أنا قلبى دليلى

قاللى حتحبى».

وصورة جمال عبد الناصر المكتوب تحتها «الوداع يا جمال» فى صندوقه أيضًا كانت صورًا لنجيب الريحانى وسامية جمال، وصورة لمارلين مونرو «أحتفظ بها لجمالها، لا يعرف اسمها، لكنه يحب صدرها الفاتن.

فى الصندوق... فى هذا الصندوق. لم أقدر على لمس الصندوق.

جلسنا على حافة المرتبة المتآكلة المتسخة فى لون التراب.

ـ «زورونى كل سنة مرة..

حرام ....»

تردد صوته فى أذنى. تركت أبى. خطوت ببطء تجاه المغسلين. اقتربت وقفت بجوارهم. الزغبى هامد تمامًا، صامت. حاولت أن أتبين ملامحه، لم يك مبتسمًا أو حزينًا أو غاضبًا أو راضيًا. كان نحيلاً معضمًا. ويده التى لمعت أحذيتنا كثيرًا كانت مزمومة الأصابع. «عبده» خاف من «الزغبى» طويلاً؛ كان يظنه مخبرًا وهو الذى مات حافظًا كل أسرارنا حين كنا نذكر أسماء البنات، ونقاشنا حول الاشتراكية والديموقراطية وإسرائيل، وأغانينا الخاصة:

مصر يا أمة يا بهية
يا أم طرحة وجلابية..

الزمن شاب

وأنت شابة ..»*

كان يغنى معنا

ثم مال علّى وهو يسأل باستغراب:

ـ هى مصر اسمها بهية يا جابر»

الزمن شاب...

شاااب....... شاااااااااب!

تسحبت ببطء. جلست القرفصاء بجانب أبى. أبى رافعًا رأسه كأنما يتصنت لأنشودة عذبة.

«لعل روحى تمضى قدمًا وتسير هنا وهناك

وفى كل موضع يبعث السرور

ولعل اسمى ينادى

وعسى أن تقدم القرابين.

مثلمًا تقدم لأتباع «حورس»

لعله قد أعُدَ لى مقعد فى زورق الشمس»

غريبة هى الابتسامة العذبة التى علت شفتيه. أم أنى أنا الذى علت ابتسامة عذبة على شفتى حين تذكرت أنشودة من كتاب الموتى. أو.. لعله هو الذى يسمعها الآن. أم من الذى يرددها!!!

ـ «لعله قد أعد لى مقعد فى زورق الشمس فى كل يوم يبزغ فيه الإله.. وعسى أن أستقبل فى حضرة «أوزوريس» فى أرض العدل والحق».

وجدت البقال بجوارنا فجأة، لكنه كأنما أنتظر حتى أفرغ وأنتبه إليه. ثم همس لأبى:

ـ الصبح فتحت عليه لأعطيه

كعكة كل يوم

كان ميتًا

الله يرحمه.

ردد أبى:

ـ الله يرحمه

خرج النعش من الباب يحمله أربعة رجال. هم الذين غسلوه، وخلفهم أبى والبقال وأنا. خرجنا للضوء الذى أغشى بصرى. لا أحد أمام البيوت،لم تودع واحدة ترتدى السواد الزغبى وهى تزعق بصوت مشروخ:

ـ مع السلامة يا زغبى. لا عيال ولا نسوة ولا رجال ولا فضول. أبى أمسك بكوعى بينما أسبقه بخطوة واحدة.

اهتز النعش. رتل أبى بصوت مرتفع:

«قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد ولم يولد* ولم يكن له كفوًا أحد*

«قل هو الله أحد» رددنا خلفه. كان أبى يشعر أننا وحدنا فيعلو صوته بالترتيل.

بعد صلاة الجنازة خرجنا من مسجد سيدنا الغمرى، انضم إلينا شاب يرتدى جلبابًا غامق اللون، وصبى صغير.

مشينا خلف النعش الذى أسرع حاملوه الخطى، فخطونا خلفه أسرع، فيما الصبى ينظر لى بين وقت وآخر وهو يبتسم بعذوبة، فابتسمت له آخر الأمر فجرى سعيدًا وترك موكبنا الصغير، أسرع النعش بمن يحملونه فجرينا خلفه نادى أبى:

ـ وحدوه...

رددنا ونحن على وشك الجرى:

ـ لا إله إلا الله

محمد رسول الله.

مال أبى إلى أذنى هامسًا:

ـ الزغبى.. يجرى.. زهد الدنيا انظر كيف يجرى.

أقدام الرجال الأربعة حافية، ثمانى أقدام حافية، معروقة، نظيفة، أنا وأبى فى أقدامنا أحذية. والصبى!

الصبى كان حافيًا!

سيدى الغمرى. المقابر. كوع النبى. تأملته مبتسمًا ابتسامة خجلى خفيفة، خرجت عمتى إلى المشهد من حارة جانبية، جرت إلينا، ضربت على صدرها حين رأت أبى. بادرتها قائلاً:

ـ الزغبى تعيشى أنت.

تنهدت فى ارتياح:

ـ الزغبى. ماسح الأحذية.

أشرت برأسى نعم قالت لى هامسة:

ـ انقبض قلبى لما رأيت سيد.

ثم جرت تسبقنا وتسبق النعش باتجاه المقابر.

لأنها بجوار المقبرة ساعدت عم «على الفار» وملأت صفيحتين كبيرتين بالماء، ناولته الفأس والغلق، وتعفرت طرحتها بالتراب.

عندما دخلنا جرت إلينا وسحبت يد أبى، وأقعدته على مقبرة. سأل أبى:

ـ فتحوا أى مقبرة؟

قالت وهى تنظف صدرها من التراب الناعم مثل الكحل العالق فى سواد جلبابها.

ـ مقبرتنا يا سيد.. لا تقلق.

حين انزلق الزغبى من فتحة المقبرة داهمنى حزن بالغ وأسى ومسحت على جبهتى بيد باردة.

شدتنى عمتى التى ترمقنى وهى تهمس محذرة:

ـ لا تحط فى نفسك.

ثم قالت ووشها يضحك:

ـ مر واشرب الشاى.

ـ حاضر يا عمتى.

ونحن راجعون جرنى أبى خلفه.

أمام بيت الزغبى جلسنا على كرسيين وحيدين بينما جلس البقال القرفصاء على عتبة دكانه، وبجوارنا كان مسجل البقال يطلق صوت الشيخ محمد رفعت بآيات القرآن.

«الرحمن* علم القرآن* خلق الإنسان* علمه البيان* الشمس والقمر بحسبان* والنجم والشجر يسجدان* والسماء رفعها ووضع الميزان*.

أمى تحب هذه السورة، تشدنى من يدى، نلف على مقابر موتانا، وتقول لى اقرأ «ألا تطغوا فى الميزان* وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان*» اهتز يمنة ويسرة مع سحر الآيات والصوت.

«والأرض وضعها للأنام* فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام»

تدعو لى أمى بطول العمر وهى تهمس أكمل يا جابر.

«والحب ذو العصف والريحان* فبأى آلاء ربكما تكذبان»

أصابنى الجوع. تلوت معدتى. لا معزين ولا عزائم ولا أكل ولا إعلان ولا صوان ولا ميكروفون ولا كراسى مذهبة ولا قارئ مشهور ولا ملابس رسمية.. ولا.. ولا كوب شاى أحتاجه جدًا.

نزلنا منحدر الوراقة أنا وأبى. كنا صامتين طول الوقت.

دخلنا من باب حديقتنا، شددت الكرسى بجوار الباب، جلس أبى طبطبت على كتفه بقصد الاستئذان.

تمتم أبى:

ـ ارتاح.

متى قالت:

سوف أسمح لك أن تراني جميلة؟

متى؟!!

المنصورة، والنيل، والكورنيش والحدائق، ويوم فى دفء توحه. هذا ما تصورته عندما وقفت أنتظرها كما اتفقنا.

من موقف السيارات نأخذ السيارة الأجرة، سنجلس فى الكرسيين الأماميين، فيما تنطلق الأغانى من راديو السيارة. وعندما نبعد عن المحلة ستعبر عن شوقها لى، أنا أيضًا سأحدثها عن ولعى .. وقفت سيارة ملاكى لم تلفت نظرى، سيارة طراز ٦٥، غير أن يدًا عبرت الشباك ونادتنى، وحملقت، فكانت توحه أطلت من الشباك ونادتنى. استغربتها، تلف شعرها ووجهها بإيشارب مُحلى بطوق من ذهب - البنات اللاتى أطلت تحجبن فى الوراقة فقيرات يلففن شعرهن فى إيشاربات فقيرة كيفما اتفق - ابتسمت ابتسامة واسعة، وضغطت على شفتها السفلى بسنتين مضيئتين كنجمتين، هى توحه!

فتحت الباب بتردد ثم انزلقت بجوارها. كان الطريق ناعمًا والهواء نظيفًا وشعرها الأصفر الذهبى مخنوقًا ولم يطر.

ـ إيشارب!!!!

وأنا أريد أن أفهم، مطت شفتها ذات الطلاء البديع، وردت:

ـ هكذا كل الفاضلات... ولا تنس وظيفة زوجى.

رائحة العطر تفوح، تملأ السيارة، تخرج من النوافذ يعبق بها هواء الطريق الزراعى. أخرجت نظارة شمسية وضعتها على أرنبة أنفها. قلت بوجع:

ـ عيناك.

ضحكت عاليًا، ومالت علّى، فلمس ثديها جنبى، وقالت وهى تشير للنظارة:

ـ إطارها ذهب يا جابر.. ذهب.

كان فستانها الطويل والمقفول حتى الرقبة غريبًا فى استقبال صيف، لكنه كان لامعًا ويضوى بألوان مختلفة، ضاق صدرى قليلاً، جاهدت نفسى.

طلبت منى أن نسافر للمنصورة غدًا. اليوم فورًا. لم أسأل لماذا؟ كيف أسأل، والسفر مع توحه؟!

لعلها تعد لى مفاجأة. قبلتها بجوار أذنها المختفية خلف الإيشارب، داعبت رأسى بيدها قليلاً، خلعت الحذاء، وبدأت تتمايل رقصًا مع أغنية ذات إيقاع سريع باللغة الإنجليزية، ابتسمت لأنها لا تعرف حرفًا فى اللغة الإنجليزية لكنها تتمايل. أجلت رغبتى الجامحة حتى نصل. اخترقت بالسيارة شوارعًا كأنما تعرفها ووقفت أمام محل فخم للغاية محل بعينه؛ كأنها على موعد معه. لم أبرح مكانى، ظننتها ستشترى شيئًا لنواصل. بدهشة قالت وهى تغلق بابها بلهجة أظننى لم أسمعها من قبل:

ــ انزل

نزلت، وارتبكت قليلاً، وسخرت من نفسى لارتباكى مع توحه!!

كانت تسير فى ملابسها الجديدة الطويلة كأنها ملكها، وعطرها يفسح لها الطريق.

كان محلاً للطعام. الجميع انحنوا لها. أنا كنت أرتدى قميصًا وبنطلونًا لم ينتبه لى أحد، داعبتها ببعض الكلمات، وحين سألتها عن متولى وعوض أشاحت بقرف. وهى التى طلبت أنواع اللحوم والخضار والفاكهة والمشروبات وهى التى انحنى لها الرجل وهى تدفع الحساب فيما أركن بظهرى قليلاً إلى الحائط، كل ما معى أربعة جنيهات وبعض قروش. كان يمكن أن نأكل بعض الساندويتشات ونشرب الشاى فى الجزيرة وندفع أجرة السيارة وأرجع بالباقى. شعرت مرة أخرى بسخف ارتباكى وكرهت برجوازيتى الصغيرة.

لا بأس. إنها تقابلنى بصيغتها الجديدة، سيدة مجتمع تمتلك سيارة ونقودًا ونجومًا نحاسية. لا بأس، لكنها فى النهاية ستكون لى.

فتحت لها باب السيارة كرجل يفهم فى الأصول. قلت بزهق:

ــ اخلعى النظارة.

خلعت بلا تردد، وبصت فى وجهى، ابتسمت عيناها بحلاوة من ماضى قريب. لففت ذراعى حولها، ضغطت، قالت وهى تحملق فى الطريق:

ــ بطل شقاوة.

إذن سنصل بعد قليل لمكان تعرفه تمامًا وفى انتظارها مثل محل الطعام الفاخر. سألتها بعد تردد ــ أدهشتنى ــ:

ــ إلى أين؟!

أوقفت السيارة تمامًا. ثم أخرجت إصبع «روج» وبصت فى المرآة تتأمل وجهها الذى حاولت محو نمشه بمكياج ثقيل، فهجر وجهها جمال تجهله.

قلت لها:

ــ أحب النمش على وجهك مثل نجيمات...

فقاطعتنى:

ــ كل وقت وله آذان.

أخذت تضع أحمر الشفايف القاتم باهتمام بالغ، زمت شفتيها، وخرج لسانها يلعق شفتيها. ثم فتحت الباب فجأة وهى تقول:

ــ هيا.

قبل أن أسأل.. كانت تتجه لمحل ذى درجات رخامية قليلة، أخذت، لكننى نزلت خلفها، وصعدت خلفها، ومعها دخلت المحل. بصت إلى لتطمئن على وجودى. تصرفاتها المفاجأة صدمتنى. قررت أن أتركها وأمشى، تراجعت فورًا، لعلها تريد شيئًا ما. لا. إنها تريد شيئًا محددًا، فهى منذ خرجنا بسيارتها. لا تتكلم إلا بالكاد. أين تفجر توحه هوسها الحسى؟ أمسكتنى من يدى وهى تهمس:

ــ تعال.

صعدنا للطابق الثانى بالمحل. ضغطت على يدها لعل الدفء يعود، سحبت يدها بعد قليل إذ كانت مشغولة تمامًا بالاختيار، همست للبائع:

ـ أريد بعض الفساتين الحديثة.

ـ حاضر يا فندم.

كوم من الفساتين الحديثة.. أحدث موديل. سألتنى، ولم تنتظر ردى، وهى تختار:

ـ ما رأيك!

ـ جميل

لم تستمع لى، فإنها تختار بدقة وعناية الألوان بالتحديد، تريد كل الألوان، رغبة جامحة فى اكتناز كل ما تراه. تشير بإصبعها فتنزل الملابس تطير إليها، تحط عليها، تلتف بها، تزهو، تختال، تصير أقمشة ملونة تطرح نقودًا ورقية، نقودًا كثيرة ورقية.

ـ ما رأيك؟

لم أرد. تابعت اختيارتها من قسم الملابس الداخلية، شدتنى من يدى، عرضت على الملابس الداخلية، فى غفلة لحست بلسانها خدى وهمست:

ـ أمعقول؟!!

طارت منى كل الأحاسيس القديمة الجميلة. شدتنى من يدى خلف الستارة تعتصر فى يدها الملابس الداخلية، هاجت أحاسيسها مع ذكرى قديمة. أعرف.

ـ جميل؟!

تسأل وقد التصقت بى.

طارت منى كل الأحاسيس الشهية. والحب والصداقة والاشتهاء. كما طار نمشها كعصافير هجرت مكانها للأبد. هل دفعتها بخفة، بيد قلقة؟. هذه الملابس ليست لى ولا هذا العطر ولا الذهب ولا الإيشارب.

أنفلتُ منها من قسم الملابس الداخلية، خرجت لطرقة. لشرفة، النوافذ

الواسعة تطل على النيل. فى النيل نقلت «حتشبسوت» الجرانيت لتصنع مسلاتها لتخلد أبدًا. لم أطمع سوى فى نزهة، أمس. ليلة أمس قلت لمنصور:

سأحكى لك أنا هذه المرة حكاية ستحدث، وكنت كراقص باليه محترف أمشى على حافة حلمى بأطراف خيالى حكيت له كيف ستأخذنى فى حضنها فى موقف السيارات فيندهش الركاب والسائقون وصبى مثل صبية يوسف شاهين فى أفلامه سينظر إلينا ويبتسم، وربما يدفع طاقيته للوراء وتظهر أسنانه البيضاء كما يحب يوسف شاهين. وسيقدم لنا باعة المشروبات الباردة الزجاجات بفرح. وسنركب سيارة أجرة، ونجلس فى الكرسيين الأماميين، فى الخلف ستحسدها امرأة وسيحسدنى رجل، سآخذها تحت إبطى فيما تنطلق الأغانى، وفى نيل المنصورة سنركب مركبًا وحدنا، يلمع ثدياها فى ضوء الشمس، تستلقى فى المركب وتتهادى بها، أنام على صدرها يلسعنى كبؤرة شمس وتهتز المركب برفق برفق برفق.

النوافذ الواسعة تطل على النيل الذى أراه الآن كئيبًا، تمرق السيارات بجواره غير عابئة بوجوده. لمست كتفى:

ـ هيا يا جابر.

هرع عامل المحل إليها، حمل الحقائب العديدة، وتنحى جانبًا لتنزل، نزلت الدرجات بتؤدة وزهو.

كنت بجوارها قد أدركت مظاهر الأمراض الجديدة والتحولات.

فتحت باب السيارة.. أخذت مكانها وفاح العطر من جديد بجوارها. لم نتبادل الكلام. نظرت لى بدهشة، وسألت بسذاجة:

ـ لماذا لا تتكلم؟

كنت أنظر أمامى للشارع الممتد حتى يقطعها النيل بالعرض. وأحس ثقله بصدرى. سألتها:

ـ إلى أين؟

مطت شفتها وقالت بزهق:

ــ لا أعرف...

وأضافت وهى تهز كتفيها:

ــ اشتريت ما أريد.

ــ وأنا!!

ــ ماذا.. أنت ماذا؟

ــ لماذا جئت معك؟

ــ ونيس

ارتجت بى الأرض.

ــ آه..

ــ وجهك تغير!

ــ ليس وجهى... كيميائى تتغير كلها الآن.

ــ لا أفهم!

ــ أنت لا تفهمين شيئًا.

ــ جابر!!

ــ توحه.. لماذا دعوتنى؟

ــ ماذا تريد؟

ــ أريدك...

ــ ما زلت مراهقًا!!

تحركت السيارة. طلبت منها بهدوء:

ــ لا تسيرى...

مضت بسرعة فائقة من أقصر الطرق إلى كورنيش النيـل، رأيتهـا قاسية ومنفعلة ومريضة للمرة الأولى منذ جاءت لى فى حجرتى التى فوق السطح وفاجأتنى بولعها وملابسها الداخلية السوداء الشفيفة. أمرتها:

ـ قفى

لم تقف، فصرخت:

ـ قفى

لم تقف أمسكت يدها، بغضب وعنف وسألت:

ـ إلى أين؟

ردت بهدوء وثقة وزهق أيضًا:

ـ ستعبر كوبرى طلخا..... ثم إلى المحلة.

دخلنا الكوبرى بالفعل. فى المنتصف صرخت فيها:

ـ قفى... قفى.

وقفت.

نزلتُ، صفقتُ باب السيارة بشدة. نظرت لى طويلاً بغيظ، لكنها مضت وفورًا بسيارتها القديمة. وأعتقد أننى لم أرها بعد ذلك.

صلاح

ليس صلاحًا!

لم أره منذ شهور، ولم أذهب لدار جدتى من سنوات، وعمتى هناك وزوجها وعيالها وابنها الأكبر صلاح. لا يخطر على بالى أن أسأل عنه. صلاح كما هو صلاح: موظف صغير فى وحدة صحية، من بيته لشغله، صموت، لا يقرأ عنوان جريدة، ولا يجادل فى حدث أو ترقية أو جريمة ولا يطرب لأغنية. ذات مرة همست لى عمتى - أم صلاح - أن أجعله يأتى لحجرتى لأعرفه على الناس أو أعطيه كتابًا أو مجلة. وكثيرًا ما ألحت عليه أن يذهب للسينما، وكان لا يزال يتذكر دائمًا عقاب الضرب الذى يناله لأنه وهو الصبى يبول على نفسه.

ضرب أبى كفًا بكف وهو يقول:

ـ جن.

اقتربت أكثر. رأيت أمى تضرب على صدرها:

ـ جن!!

نظر أبى لى وأكمل:

ـ الولد صلاح جن.

تمددت بجوارى أمى على «الكليم» البنى، وأنا أشرب الشاى حكت لى:

أن صلاحًا لم يعد صلاحًا الطيب المؤدب يضرب أمه. أمه يا جابر. صلاح لم يعد صلاحًا. صلاح الطيب المؤدب الخجول يضرب أخواته البنات... يضرب «نور» التى على وش زواج!!!

الحقه يا جابر.

لم أر أبى بهذه الحدة والانفعال من زمان، وهو يردد:

ـ سأقتله.. أبوه لم يربه..

لكننى سأربيه.

زوج عمتى رجل مسكين، لا عمل له تقريبًا منذ أغلق باب النول ومنذ

استوطن السل فى رئتيه، يخرج فى الصبح ليجلس على المقهى طول النهار يمص فى الجوزة والجوزة تمص فيه.

زوج عمتى رجل مسكين. وصلاح الذى يكبرنى طيب وفى حاله، لم يتغيب يومًا عن عمله أو اشتكى منه أحد!

ربتت أمى على كتفى:

ـ رح له يا جابر... شوفه... شوف ابن عمتك.

يكبرنى، لكنه يحبنى ويحترمنى، كنت أهمس له دائمًا وأبثه محبتى، ولا أذكره أبدًا برائحة الصنان.

صلاح كان فى عمر جلال ـ ابن خالته ـ عمتى الأكبر، صلاح ـ كان ـ زميل جلال فى الحارة والمدرسة، وافترقا فى العام السابع والستين، وجلال مات فى سيناء. لم يرجع جثة أو رفاتًا، أو وسامًا نعلقه على حائط، وصلاح جلس على كرسى فى الوحدة الصحية لم يبرحه لسنوات طويلة.

يكبرنى، ويسمع لى بإعجاب، وحين يجلس معنا ـ نادرًا ـ فى الحجرة يظل صامتًا، يداعبه عبده ويأخذه تحت إبطه ويحكى له حدوته طويلة عجيبة مثيرة، ويعلق عليها برأيه ثم يسأله:

ـ ما رأيك أنت يا عم صلاح؟!

صلاح يبتسم كطفل ولا يرد، يجلس صامتًا وينسحب فى هدوء، لم يتعصب يومًا لرأى أو لنادى فى كرة القدم. لم ينتقد يومًا عبد الناصر والسادات. ربطت حذائى جيدًا، وقلت لأبى هامسًا:

ـ سأذهب لصلاح.

حين دخلت دار جدتى وفيه تقيم عمتى بالطابق الثانى، شممت رائحة البخور، فيما هاجت رائحة الذكريات.

ذكريات سيد وجميلة وجدتى وزوجة عمى خديجة، البلاط الأبيض والأحمر لا يزال منذ أيام أبى فى الدار غير أن الألوان خبت والنعومة

تغتضنت والدرابزين الخشب كما هو، ومكان الزير أصبح حوضًا وحنفية، ودورة المياه تحت السلم لا تزال ورائحة الصنان لا تزال.

الحجرة القائمة وحدها على يمين الباب الكبير بابها مفتوح على ضلفتيه.

وقفت على عتبة الباب المفتوح فوجدته. تقريبًا صلاح. أمعنت النظر. كان هو صلاح جالسًا على حصيرة نظيفة لامعة، مرتديًا جلبابًا أبيض وقد أطلق لحيته تمامًا، والصلع زحف على رأسه. تأملته جيدًا. غريبًا عنى، قريبًا منى، أعرفه ولا أعرفه. رفع عينيه، رآنى، لم يبتسم فابتسمت.

قلت وأنا أدخل:

ـ صباح الفل يا صلاح

فرد بثقة وصوت خلت أنى أسمعه لأول مرة:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فأدركته.

جلست على الحصيرة، مددت رجلى بالحذاء خارجها. ركنت بظهرى. بعض بنات عائلتنا تحجبن ـ هكذا الحال فى الشارع والجامعة ـ توحه. تنهدت.. وتوحه!!

لكن صلاح أول شخص فى عائلتنا يخلع القميص والبنطلون ويرتدى الجلباب الأبيض، وأول من أطلق لحيته.

أدركت.

على الشباك قلة حمراء اللون.

ربت على فخذه:

ـ كيف حالك يا عم صلاح؟

تمتم، ولاحظت تعثره.

ـ كيف... كيف حالك أنت يا أخى؟

بات وجهه متجهمًا، عصبيًا فى أحيان.

قلت له أنا:

ـ الحمد لله.

فتحركت عيناه بتوتر فى اتجاهات مختلفة.

أصابنى بعض قلق.

تفحصت الحجرة، فى الركن وسادة وبطانية، وثلاثة كتب، ومسمار فى الحائط علق عليه جلبابًا أبيض، وبجوار الحصيرة شبشب جديد لامع.

جلست القرفصاء. قلت بصوت خفيض:

ـ سأطلع لأرى عمتى.

لم يرد!

زعقت عمتى:

ـ سأرميه فى الشارع «المجرم».

مازال السرير الحديدى هو سيد المشهد فى حجرة عمتى ـ تلك الحجرة التى عاش فيها أبى وأمى حياتهما معًا – ودولاب جدتى فقد رونقه، لكنه مازال فى ذات الركن، فوق مرآته المطموسة ألصقوا صورًا مقصوصة كيفما اتفق للسادات ببدلته العسكرية، صورة الشيخ الشعرواى، وصورة صغيرة جدًا لزوج عمتى قد أصفر لونها تمامًا.

ثم انهمرتْ فى البكاء.

طبطبت عليها.

ـ لا تحزنى يا عمتى.

مسحت وجهها بطرحتها السوداء:

ـ لا يا جابر... صلاح تغير..

يضربنى يا جابر... ويضرب البنات

جالس لنا على الباب بالعصا...

لا أريد أن أقول لأبيك...

وعمك كامل لو عرف سيقتله

ويصلبه فى الوراقة على عمود...

وضعتْ وابور السبرتو على الترابيزة الصغيرة، ووضعتْ كنكة القهوة، وحكت لى أن صلاح تغيب ثلاثة أسابيع متصلة من عمله، وأطلق لحيته، وذهب لعمله ذات صباح ورجع يزعق ويصرخ ولم يرجع لعمله مرة أخرى. وأنه يحكم عليهم أن يغيروا شكل ملابسهم. ولما رفضت عمتى ضربها، جرجرها فى الشارع وضربها، وأشهر عصاه فى وجه كبار الشارع، وجرجر «نور» من سوق السمك حتى سيدنا الغمرى من شعرها.

ـ صلاح الطيب!

ـ ولا يشغله سوى متابعة أخواته البنات وضربهن، وأبوه لا يملك شيئًا، أبوه سعاله ازداد ولم يعد ينام، ويبصق دمًا.

وضعت فنجان القهوة. نهضت فى ألم. قلت لها عن زوج عمتى، بتأكيد:

ـ لابد أن يدخل المصحة.

خرجت من الباب، ولحظة كنت باتجاه درجات السلم لأنزل. سمعت صوت عمتى الملتاع:

ـ هرب من المصحة ثلاث مرات.

واصلت نزول الدرجات مشفقًا على قلبى.

تمددت بجوار صلاح الذى انزاح قليلاً والتصق بالحائط. قلت له:

ــ أبوك..

لم يرد..

ــ لابد أن يدخل المصحة.

تمتم، سمعته بالكاد:

ــ كفره!

وكأنى لم أسمع. سألته ــ ماذا بك يا صلاح؟

وفجأة انطلق من داخله مارد لا أعرفه، إذ نهض وزعق وصرخ، ولعن شغل الحكومة الحرام، وملابس أمه الحرام وملابس أخواته البنات الحرام، ولعن أباه ومرضه والمقابر والحوارى وأقاربه، وكان يلمح لى، وأشاح فى وجهى وهو يزعق:

ــ كذب.. كذب.. ونفاق.. ومسخ مسخ.

وضع إصبعه أمام أنفى تمامًا. هو يصرخ:

ــ كتبك مسخ.. مسخ.. مسخ.. مسخ..

اقتربت قليلاً وأنا أسأله:

ــ هل لى أن أسألك؟

زعق معترضًا:

ــ لا

كأن مسه الجنون

ــ لا.. لا تسأل.. لن أسمح لك..

إياك أن تسأل.

ثم صمت.. صمت ثم اقترب منى كثيرًا. مد يده على كتفى وهو يقول:

ــ أنا أحبك يا جابر فابعد عن طريقى.

ثم جلس وأعطانى ظهره. وراح فى صمت عميق. همست:

ـ صلاح.. أتريد شيئًا يا صلاح؟.

لم يرد. عاد لصمته، لكنى أعدت السؤال مرات عديدة. وقفت. هممت بالمشى.

نادانى:

ـ جابر

ـ نعم

ـ هات جنيه.

أعطيته الجنيه، وخرجت.

فتاة بيضاء دقيقة الحجم
وفستان أزرق قصير

كنت فى الشرفة، تغمرنى نسمات صيف، اتكأت على ذراعى، ودفء يبثه رخام السور. كنت صافيًا تمامًا. بعد قليل أمسية شعرية، أحمد سيلقى شعرًا، لن أبذل أى جهد، سأستمتع فقط. الليلة سأهرب من بينهم وأهرب إلى حجرتى التى فوق السطح، سأخلع ملابسى وأنا أدندن بأغنية، وأتمدد باسترخاء وأحملق فى عروق السقف الخشبية، لا يشغلنى شىء، وربما تقلبت على سريرى عدة مرات قبل أو أروح فى سابع نومة.

كنت صافيًا تمامًا. منصور مع رفاعى يضحكان بلا توقف، منصور يحب سماع حكايات البنات المراهقات من رفاعى، وأحمد يرتدى بدلته الصيفية البيضاء ومستعد بزهو أن يلقى شعره، خاصة قصيدته عن حرب أكتوبر التى خاضها وبمزيد عن ذكرياته عن الحصار سيحكى، ومشروع الكاتبات الصغيرات ينتظرن بفارغ الصبر تلمس الشعر، وأنا كنت صافيًا تمامًا. فريد أرسل لى رسالة طمأننى فيها على استقرار حياته وعن قصيدة أخيرة، وحب جديد، وامرأة أخرى، وكتاب لم يقرأه غيره، ووبخنى لأنى أهمل الرد على الرسائل، ثم ربت علّى بكلماته الحنون وقال إنه يحبنى وذكرنى بأمه وأخوته. ابتمست لنفسى فأنا فى لحظة صفاء نادرة، أمى هذه الأيام فى أفضل حالاتها الصحية لا تكف عن زيارة الأقارب من منزل جدتى بجوار المقابر مرورًا بدار «عيسى» دار أخوالها وخالتها إلى بيت عمتى، كما أنها صارت تسافر إلى الإسكندرية وحدها لأختى التى تزوجت هناك، وتنزل من قطار لترام وحدها!

لا أعرف سر الرضا الذى حط علّى، لعلها هذه الشمس التى تتوهج بلون الذهب قبل غروبها، أم قميصى البنى الجديد الناعم ذو النصف كم الذى أرتديه على بنطلون بيج فاتح، أم لأنى وعدت عبده بأن أزوره فى الإسكندرية؛ ليأخذنى إلى شقته التى على البحر، ونستمتع بالبحر واليود والترام ومدينة أحبها قال عنها نجيب محفوظ أنها قطرة الندى، وعبده سوف يدللنى كطفل فيأتى لى بالسمك والجرائد ويعزم علّى بفشار ونحن فى محطة الرمل وسأزن نفسى لأعرف هل تجاوزت الخمسين كيلو جرامًا أم

ليس بعد. كنت فى غاية الصفاء، وشعرت حقًا أن «هذا يوم طيب للحياة». تحسست الرخام الذى منحته لنا ثورة يوليو وكان قبلاً ملكًا للباشا.

سأرد على رسالة فريد وأخبره أننى قرأت رواية جميلة «اسمها» ليس فى رصيف الأزهار من يجيب «للكاتب الجزائرى مالك حداد». سمعت ضحكة رفاعى مرة أخرى؛ هو الآن يضع رجلاً فوق رجل ويجلس أمام البنات باستعلاء ويلقى قصيدته عن فستان الدانتيلا للمرة الخمسين. ما أجمل أن أكون صافيًا. وفجأة.. عذرًا لهذه الفجأة، فهذا ما حدث بالضبط: انتهك صفائى نقطة ضوء مبهرة إذ كنت فى الأعلى بالشرفة، أطل على البوابة الحديدية الكبيرة التى تفضى لمساحة من بلاط أصفر نظيف ولامع ثم إلى درجات رخامية تنتهى إلى نقطة الضوء. مرقت من البوابة وفى التو خطفت بصرى. فتاة بيضاء دقيقة الحجم بفستان أزرق قصير. قبل أن تصل لدرجات السلم الرخامية قلت فى نفسى:

سأتزوج هذه البنت.

حين وضعت قدمها ذات الصندل الصيفى على درجة السلم، فردت كفى على دفء الرخام. كان فمها البندقة بشفتين حمراوين، وشعرها مصففًا مثل شعر طفلة تجرى حافية على كورنيش بحر إسكندرية، ومصففًا بطموح فتاة! لا أعرف هل كنت مختزنًا هذه الصورة لزوجتى منذ الطفولة؟! أو أننى لم أتصور دقة أكثر من هذا؟ ما الذى رمى ضوءها على؟ أم ترى روحها قفزت إلى قلبى؟، أو هى اللحظة الفريدة التى تلتقى فيها جزئيات صغيرة فى كون شاسع؟.

عندما وصلت لمنتصف درجات السلم حجمت نفسى أن أنزل وأجرى إليها وأقول لها سأتزوجك.

تشبست بالرخام الدافىء بيدى الباردتين. كززت على شفتى السفلى وتسمرت فى مكانى، سآخذها من يدها تدخل عالمى وأهرب من ... سأقول لأمى. انتهت من درجات السلم، نظرت لى، نظرت لوجهها، ابتلعته فى ذاكرتى. أمامى تمامًا وقفت وسألتنى:

ـ أين نادى الأدب؟

وقفت أمامى بالذات، ورمت بالسؤال، واشتعل فستانها الأزرق بألوان الأحجار الكريمة. كان ينقصه زهرة حمراء على صدرها. فردت أصابعى مشيرًا للقاعة المفتوحة على ضحكات ومناقشات الأدباء؛ فاختفت، بعد شرود لحظة تصورت أننى غفوت وأن ما رأيته ما رأيته، ودهشتى بلغت الغرابة، فتوهت بسرعة ملهوف إلى القاعة. زميلة أعطتنى قصة لأقرأها فيما بعد، وزميل سألنى عن كتابه، وأحمد سأل عن التقديم، وأنا فى غيبه، عم منير ضحك عاليًا وفرد ذراعيه ليمنعنى من دخول السطح بالطابق الثالث، أين هى؟ رجعت متتبعًا مصدر الصوت فدخلت القاعة بها بهجة الشعر وأنسه، نهض رفاعى وجذبنى من يدى وانتحى بى جانبًا وهمس بأنه رأى «مخبرًا» جديدًا وتعرف عليه بسهولة إذ كان «المخبر» يرمق الجميع بعينين زائغتين متوترتين.

ضحك رفاعى ساخرًا، فيما كنت أبحث عنها مذهولاً. سأل رفاعى: ماذا سيفعل؟ ماذا يا رفاعى؟ بدأت تهرب منى لحظات الصفاء، طارت مثل فراشة، اختفت فى ضوء الألوان. همست لرفاعى أن يخبر أحمد و... فقط حين هم أن يتركنى شددته من كوعه وسألته:

ـ هل ستقوم الثورة غدًا؟

ضحك وأردف:

ـ كنت أظن.

طلع منى الصوت:

ـ أين هى؟

ضحك عاليًا هذه المرة وهو يشعل سيجارته:

ـ الثورة فى كوبا.

تركته، لأواصل البحث عن فستان أزرق لمس قلبى وطار، هى ليست بين الجالسين! ولا الواقفين ولا فى المكتب أو البوفيه أو الطرقات.

ــ مساء الخير يا أستاذ..

عبد العزيز.. للمرة الثانية أراه.. قال أنه يكتب القصص، فى أول مرة داعبته بالحديث عن شعره الناعم جدًا وكان حييًا مثل طفل. هرش مؤخرة رأسه وهو يلملم الكلمات:

ــ أستاذ جابر... عرفت.. حجرتك.. أقصد مكان بيتك.. هل يمكن.. أن أزورك؟

أومأت برأسى موافقًا. وانفلتُ منه. غريبة. أين اختفت؟

سألنى أحمد بقلق:

ــ تبحث عن من؟

هززت رأسى نفيًا

وقف أحمد أمام الميكرفون وانتبه الجميع، تسحبت ببطء، عبد العزيز يرمقنى من بعيد مبتسمًا كأم.

شعرت أن هذا الولد حنون، هل يكتب قصصًا جيدة؟!

تسحبت لآخر القاعة وقلت لنفسى أننى ساذج وأننى فقدت لحظات الصفاء بلا مبرر، بل وضاق صدرى ودخلت فى توتر وتذكرت توحه وصلاحًا ولوزا. وقررت أن أرجع لحجرتى وأرمى وهم ضوء سطع ثم اختفى ورائى وتذكرت حكايات أبى عن الجن والخيالات والوجوه التى تبص عليك فى الليل وتختفى والجنية التى أحبت خالى والوجوه التى تبص علينا ونحن محمومين. تركت باب القاعة خلفى فوجدتها أمامى واقفة فى ذات مكانى بالشرفة، غير أن الظلمة ابتلعت لون فستانها الأزرق، وفى سرعة التفتت لتواجهنى بعينين طفلتين لا تحملان سحر أنثى، لكنها شدتنى من روحى فبادرتها بسؤال مباشر:

ــ ماذا تريدين؟

قالت أنها تكتب بعض الشعر، وتحب بيرم التونسى، فرأيت ابتسامة

ببيرم ومد يده، ربت علّى وغمز لى بيعينه، مددت يدى لأتشبث به، لكنه اختفى مثل كل الوجوه التى تختفى إذا كنت تسير فى مقابر ذات ليل موحش وقلبك يرتج خوفًا. ابتسمت فانزاحت الظلمة، رجعت للخلف بهلع فقد انخلع قلبى بعد أن أدركت أننى سأتزوج هذه الفتاة، مسحت على شعرى بيد راجفة وتمتمت متسائلاً بعد لأى:

ـ ما اسمك؟!

قالت بصوت ارتبك فجأة وهى تنظر فى وجهى:

ـ هدى.

اليوسفى يمرح فى عربة القطار

المسافات الطويلة تجعل بينى والطريق ألفة، أتابعه بشغف وبصر مفتون، تحكى لى التضاريس تاريخنا أستبطنه، والرمال فى تلك المسافات كانت صفراء وحمراء وخشنة ولامعة.

والقطار الذى يمضى على مهل أتاح لى مشاهدة النخيل البعيد والقريب وملاحظة أنواع الصبار المتناثرة فى قلب المساحات الشاسعة، وأدهش لجمل وحيد أو عنزة وحيدة، وأكتشف المقابر الوحيدة أيضًا.

كانوا معى، وكان معى، ولم يكن أحد معى؛ إذا أخذنى الطريق رفيقًا، وكنت قد أخذت كتبًا فى القصة والشعر ظنًا منى أننى سأختلى بنفسى لأقرأ.

كثبان رمل ومسطحات وبيوت فقيرة ونخيل، لم أسمع الثرثرة أو الضحكات العالية أو النقاش الحاد، كنت جالسًا بجوار النافذة أحاول أن أعيش كل لحظة فى لقطة أراها كحياة كاملة، هذه المساحات التى تحلم بيد بشرية تخططها وتزرعها وتحلم بمن يمنحها أنفاسه.

ـ أتحلم بمرسى مطروح؟

لا أعرف كيف وصلنى صوت هدى الخافت الرقيق، لأول مرة منذ غادرنا الإسكندرية، أسحب نفسى من النافذة. التقيت بعينيها مباشرة، فى يدها ثمرة يوسفى تلمعها بيدها، لاحظتنى، وأنا أرمق يديها واليوسفى المتألقة اللامعة.

ـ أتشم؟.. لليوسفى رائحة بديعة.

مدت يدها بالثمرة، أعجبتنى كلمة بديعة، أخذت اليوسفى، ملأ العطر عربة القطار. وقف عبد العزيز وهتف:

ـ اليوسفى للجميع.

ثم أخذ يرمى علينا بالثمرات، يطوحها بمهارة فتسقط فى أيادى البنات، شاركتهم هذا الهرج الطفولى الجميل، يلتقط الشبان اليوسفى، ذهبت للطرف الآخر للعربة بحيث واجهت من بعيد عبد العزيز، ثم طوحت باليوسفى للجميع فطار مثل نجوم مشتعلة، والضحكات تجلجل. نهض بدوى عجوز، شد عقاله عن رأسه هاتفًا:

ـ يعيش اليوسفى حبيب الشعب.

اشتعلت الروح بالسرور. قفز رفاعى إلى رف بالعربة ودل برجليه، كتم ضحكة، وأشار بيديه...

ـ ليسمع الجميع.

ثم عدل من ياقة قميصه، و«مرفت» تتطلع إليه وتنظر خلفها وتبص علّى بوجه ذى ملامح متوترة حزينة، تنحنح رفاعى وتردد. هتفت هدى التى وقفت على كرسى القطار بقدمتين حافيتين:

ـ قل يا رفاعى.

فارتجل رفاعى قصيدة مضحكة عن اليوسفى ورائحته ولونه وآكليه والجميع يضحكون بين بيت وآخر، جلس عبد العزيز فى كرسى منكمشًا وحيدًا فيما بانت أسنان البدوى بالفرح بالشبان، وهبت هدى تشجع رفاعى ضاحكة، ثم فاض اللون البرتقالى المحمر ليغمر السماء والعربة والوجوه. وتحولت الشمس لثمرة يوسفى مشتعلة، مددت يدى وأخذت ثمرة يوسفى من يد هدى وقبل أن أقول لها الجملة التى يجب أن تقال وقف القطار فجأة بفرملة أطاحت بهدى والبنات وعبد العزيز الذى وقع أرضًا، والهرج هذه المرة كان مفزعًا وقلقًا، أمسكت هدى، ووقفنا جميعًا مع آخر اهتزاز للعربة، هرولنا للنوافذ. فى الخارج كانت الظلمة لم أستطع أن أتبين شيئًا، القطار مثل سهم داخل ظلمة، حين ترددت أقوال مثل عطل فى القطار أو حادثة نهض العجوز البدوى وراح يهدىء الجميع حتى وصل إلينا لتأكده أننا الغرباء فى هذا القطار البطىء المتجه إلى مرسى مطروح، بيديه الطويلتين رفرف علينا، وقال بصوت عال:

ـ لا يترك أحد مكانه، إنهم اللصوص يعترضون القطار. ساعة زمن وسيمضى القطار فى طريقه.

سحبت العجوز من يده، تابعنى رفاعى وعبد العزيز وبجوار باب العربة، استفسرت منه وسألته الحقيقة فأخبرنى أنهم اللصوص يعترضون

القطار، هذا القطار.. وأنه يمر مرة واحدة فى اليوم، يستوقفونه ويصعدونه بالبنادق.

سأل عبد العزيز بدهشة طفل:

ــ لماذا؟

قال البدوى: إن فى بعض العربات كمية كبيرة من البضائع والبقوليات يسطون عليها ويرجعون، ويمضى القطار.

تسللت من بينهم وكان رفاعى يعطى سيجارة للبدوى، تركت العربة لعربة أخرى ركاب العربة الأخرى فى حالة من الهدوء والاسترخاء بل ومعظمهم فى نوم عميق. إنهم يعتمدون على هذا المسلسل كما أخبرنى شاب جامعى فى محطة مطروح. أمسك بيدى بقوة ومفاجأة، ارتعدت داخليًا، ولما نظرت وجدته «رفاعى» سألنى باستغراب، وجدية:

ــ إلى أين؟

ــ إلى.. لعلنى أرى مشهدًا

لم يعط لى فرصة الكلام، جذبنى من يدى بقوة حتى رجعنا لعربتنا، وجميع زملاء الأدب يطلون بفضول من النوافذ المظلمة حيث لا شىء يرونه. والعجوز البدوى يبتسم من بعيد ابتسامة واسعة وجلست فجلست هدى. سألت متوترة:

ــ ألن يهاجموننا؟

ابتسمت نافيًا

ــ لا نملك أى بضائع.

شحب وجهها وفركت يديها، حاولت طمأنتها، أطللت من الشباك، مددت ذراعى فى الظلمة وقلت مؤكدًا:

ــ ها هى الظلمة والبرد..

ثم ضحكت

ــ إنه مجرد سطو تقليدى.

حط السكون على الركاب، قفز رفاعى إلى الرف العالى، قال ساخرًا:

ـ هنا لن يطولنى أحد.

ثم سمعنا طلقات نارية، ارتعد الجميع، ما عدا البدوى الذى نهض وأخبرنا بفرح كأنها البشرى الطيبة:

ـ سيمشى القطار الآن.

وبدأت عجلات القطار فى التحرك، وأخذنا نتصنت لحركة وصوت العجلات، حين أخذ القطار سرعته المعتادة صرخنا فرحًا كتلاميذ ساعة الفسحة. بينما صرخت «مرفت» وبكت وارتمت فى حضن هدى وأسرع القطار.

لم تكن مرسى مطروح سوى شحوب وبحر وملح وزجاجات مياه عذبة ومطعم ردىء الأكل. لعلنى لم أعرفها جيدًا فقد شغلنى وجه هدى الدقيق الملامح، وخجلها وجرأتها فى آن. وأدهشنى هذا الاهتمام المفاجىء بها من زملائنا الشعراء. أكثر من شخص باح لى أنه يفكر بها كثيرًا وسألنى أن أدله على الطريق إليها، وأحدهم همس لى أنه سيتقدم لزواجها عند عودته للمحلة. وهو الوحيد الذى أزعجنى لأنه شاب وسيم وثرى أيضًا. كانت تبادله الأحاديث مثلنا ولا تزيد لكن ذلك أرعبنى كثيرًا. حاولت أن نتحدث فى الشعر أو فى القصيدة التى ألقاها الليلة فى الأمسية الخاصة بنا لكنه كلمنى عنها بلا توقف. وبينما كنا بحجرتنا نتبادل الكلام عنها إذ بها تأتى مرتدية بيجامة النوم. وقفت مندهشًا من طفلة حقيقية أمامى، قالت مستغيثة بنا:

ـ الحقوا

كانت «مرفت» جالسة على السرير منهارة تمامًا وتبكى بانفعال وتمسك رأسها بيديها، وصدرها يتهدج، شدنى رفاعى من ذراعى وهمس فى أذنى:

ـ حالة عصبية.

حاولت تهدئتها، وعبد العزيز يحاول كتم ضحكة، وقال لها بعد لأى:

ـــ تماسكى

ثم انفجر ضاحكًا وهرول من الحجرة.

قفزت «هدى» خلفها بقدمين حافيتين، أظفار هدى وردية بدون طلاء وأصابعها شديدة الرقة، اقتربت منها، لشعرها رائحة طيبة. قالــت بلهفــة، موجهة الكلام لى:

ـــ نطلب الطبيب.

أكد البعض أن بالفندق طبيبًا. والفندق لم يكن فندقًا بــل فــيلا مــن طابقين، تحوطها حديقة صغيرة مبهجة واسمة الزهور. ولم يكن به غيرنــا نحن الأدباء. فى تلك الليلة جلسنا فى حديقته المبهجة، لم يكن سوى القمر المكتمل اللامع، كنا نمزح معًا وأنا أغنى:

ـــ يا ورد مين يشتريك!

وللحبيب يهديك...»

هتف رفاعى:

ـــ لا تشتر يا جابر.. اقطف.

ضحكت هدى، ثم نظرت لى بتوجس طفلة.

قام عبد العزيز بإطفاء كل المصابيح الكهربية بالحديقة، وقد دعــوة للجميع على حسابه الخاص للاستمتاع بضوء القمر وبالطبيعة الخلابة. ولا أعرف لماذا ساد الصمت بعد قليل، استرخى كل منهم على كرسيه. أعطــت هدى وجهها للقمر وظهرها للزملاء وتردد لفيروز:

ـــ «يا جارة الوادى طربت

وعادنى ما يشبه الأحلام

فى ذكراك».

جلست فى مواجهتها. ولم يك سوى الوجه المضىء، رجعت بظهرها للوراء بإحساس الاسترخاء. بعد وقت همست:

ــ لسعة برد!!

دون كلام خلعت معطفى الأحمر المفتوح، وقمت إليها، انحنت للأمام، فوضعته على كتفيها، استسلمت لحظة فشعرت بأنفاسها، لمست كتفها العارى، وقلت سأتزوج هذه البنت وأنام فى حضنها. لمت المعطف جيدًا حولها، فبدت لعبة لطيفة ذات وجه مضىء.

لما لسعنا البرد صعدنا لحجراتنا فى الطابق الثانى.

قبل أن أدلف لحجرتى سألنى رفاعى بخبث وهو يغمز بعينيه:

ــ أين معطفك؟

والمعطف الأحمر المفتوح كان على الكرسى أمام التسريحة، و«مرفت» بدأت تسترد وعيها، واعتدلت هدى. ولمحتنى وأنا ابتسم لذكرى ليلة الحديقة؛ فسألتنى:

ــ لماذا تبتسم؟

هل حالتها مطمئنة؟

بعد تردد قلت:

ــ بالطبع.. ما رأيكم أن نطلب شايًا للجميع.

عندما وقفت فى الشرفة وحدى، شعرت بأنفاسها تلفح ظهرى، فنظرت خلفى بسرعة. كانت هدى اقتربت منى. همست متسائلة ببعض من تلعثم:

ــ هل تحب «مرفت»؟

قلت نافيًا:

ــ لا..

عضت شفتها السفلى وهى تتمتم:

ــ هذه هى المشكلة.

وكنا حريصين أن نرى «سوق المهربين» وذهبنا عمدًا لنرى شاطىء الغرام ونخمن أين كانت ليلى مراد وهى تغنى:

ــ «يا ساكنى مطروح

بنيه فى بحركم

الناس تيجى وتروح

وأنا عاشقة حيكم»*

فيظهر «حسين صدقى» ويلوح لنا، فنصفق ونصفر، وسمعتها تدندن:

ــ «باحب اتنين سوا

الميه والهوا....»

فى العودة كنا أمام بعضنا فى القطار ذات صباح باكر. هذه المرة كنا نتحدث عن أنفسنا وأقترب منها وألمس ركبتها، ونهمس لبعضنا أحيانًا، وبجوارنا كانت سيدة بدوية لها أصفر، ضفائره تنام على صدرها، وملابسها مطرزة بأعجوبة وابنتها الصغيرة تتقافز مثل زهرة فى رسوم متحركة. داعبتها هدى، لاعبتها، احتضنتها، سألتها:

ــ ما اسمك؟

ردت البنت بصوت عذب:

ــ وسام

بصت هدى فى عينى ودخلت عينيها، قالت بخجل وفرح وسؤال ومباغتة وانتظار لرد الفعل:

ــ سوف نسمى ابنتنا وسام.

ثم رمت لى ثمرة يوسفى، تقاسمناها سويًا، واحتفظت برائحة اليوسفى طويلاً.

يا عطية
إن للدنيا وجوهًا...

كان من عادة عطية، أن يفتح باب حجرتى عنوة فجأة قافزًا داخل حجرتى زاعقًا زعقة الصاعقة الشهيرة: ها.

ذاك اليوم فتح باب حجرتى دون استئذان وفجأة لكنه لم يقفز ولم يزعق: ها. كنت جالسًا على السرير أتصفح الجريدة بملل. ابتسمت لأنه لم يقفز ولم يزعق: ها.

وسألته ساخرًا:

ـ ماذا... عجزت يا عطية؟!

جلس، والهم يركبه، وقال:

ـ أريد رأيك بصراحة مطلقة فيما

سأحكيه عليك.

وأدهشنى حقًا أنه بالفعل قد استقالته من الخدمة العسكرية. بعدما عاش ثلاثة حروب حقيقية قاسية فى اليمن و ٦٧ و٧٣. وعندما سألته لماذا يا عطية؟ قال إننى تعبت. وخلع الجاكت الأزرق ورماه على الكنبة ثم خلع الحذاء والجورب وأشعل السجائر. وأخبرنى بالمبلغ الكبير الذى تقاضاه مكافأة ورقم المعاش. وسألت معلم الصاعقة القديم ولماذا هذا الحزن؟ أم أنها رصانة! قال لى أنه تائه، ودمعت عيناه وهو يقول إنه لم يجد نفسه سوى فى الصاعقة، وإنه أحب كثيرًا العساكر الذين حولهم من شباب خنافس إلى رجال حقيقيين إلى هذا الحد. وسألته ولماذا استقلت؟!

عض شفته ولوى أنفه وقال:

ـ مراتى.

هنا قد نهضت، تركت حافة السرير، وشددت كرسيًا وجلست. أعرف هذه الخلافات والمشاجرات التى تنشب بينهما والتى يتصورها عطية فى كل مرة هى نهاية العالم. تدخلت بينهما أكثر من مرة، ولكن أكثر من مرة يخذلنى ويطيح بكل ما نتفق عليه، ولذا لم أعد أتدخل لأننى حين أسمع لزوجته أدينه بشدة، ولما أسمع له أشفق عليها، ونتفق، ويخذلنى.

بهدوء، استفسرت منه:

ــ ما مشروعك القادم؟

نهض، وضرب رجله في الأرض وردد:

ــ هذه هي المشكلة...

ــ هذه هي المشكلة.

دخلت إفراج الحجرة وسلمت على عطية وتركت لنا كوبين من الشاى وأخبرتنى أن عمر سافر سافر للإسكندرية مع زوجته وطفلته.

أخذ عطية يضاحك إفراج وتحول لشخص مرح للغاية. وسألته عن خالتى ونزلت ورجع عطية لتكشيرة صعبة، تمتمت وسمعنى: يا ساتر!

أطفأ سيجارته فى قعر كوب الشاى، تنهد، وقال إنه سوف يستأجر دكانًا، ويشترى ماكينة خياطة ليفصل القمصان والجلاليب والبيجامات، عض شفته، نظر لى طويلاً وهو يبحث عن رد فعل، وتمتم كطفل متسائلاً:

ــ هل نسيت أنى ترزى قديم!

لم أنس، كان صبيًا صغيرًا ويجلس فى دكان الحاج زعبلاوى. منكفئًا طول اليوم على القمصان وبيده الإبرة والخيط، يركب الزراير، ويسرفل الجلاليب.

ذات يوم، وأنا صبى مثله مررت على دكان زعبلاوى. لمحت عطية جالسًا يشتغل بهمة ونشاط. ظللت ألوح له حتى يرانى... وبحذر حتى لا يرانى الحاج زعبلاوى ولمحنى عطية، أومأ برأسه، بعد قليل رأيته مع زعبلاوى ثم فر من الدكان. سألنى ما الخبر؟ قلت له إنى ذاهب لسينما المحلة الجديدة، وطلبت أن يرافقنى ويتخلص من هذا الهم وباغته: ماذا كنت تفعل؟

تردد وأجاب: أشتغل كأنه يعرف أننى أكره شغلته هذه؛ فأردف: وكنت أسمع الراديو وتمثيلية عوف الأصيل.

فقلت فى عناد: سترافقنى لدار السينما، سأتحمل ثمن التذكرة، وضع يده فى جيب جلبابه، تورد وجهه وقال بفرح: وعلى السميط والجبنة. وطرنا بفرح لدار السينما، وشاهدنا الفيلم «لحن الوفاء» لعبد الحليم حافظ وشادية. واليوم التالى ضربه أبوه وضربته أمه وضربه الحاج زعبلاوى بالمتر الخشب وكاد يفقأ عينه بالمقص وطرده من الدكان.

لم يغضب منى عطية، بل ليلتها سهرنا معًا فى قلب عربة قطار ـــ من قطر البضاعة ـــ نائمة على قضبان سكة حديد مدوها أمام بيتنا أثناء ردم النهر.

وتذكرنا الفيلم لقطة لقطة وعبد الحليم حافظ وشادية وحسين رياض، وضحكنا كثيرًا جدًا، وقلت له إننى أحببت نصف الفيلم الأول، فقال لكنه يحب شادية وأخذنا نغنى فى سعادة بالغة:

ـــ «تعال أقول لك

ح تقول إيه؟

لازم أقول لك».

ونضحك ونصفق، ونتمرغ فى عربة القطار والظلمة.

نظرت إليه بأسى، وقلت:

ـــ نعم أنت ترزى قديم

ـــ سأفتح الدكان. وربنا يفرجها.

شددت على يده. ولما لا؟!

وأضفت:

ـــ يمكنك أن تستمتع ببقية حياتك.

قال بأسى ونبرة غريبة:

ـــ أحلم أن تنتهى حياتى

ضاحكته:

ــ عمر الشقى بقى

تمدد على الكنبة، وعقد يديه خلف رأسه، وضغط على نواجزه ونفخ فى زهق، ولما طبطبت عليه وسألته عن سر همه باح لى بأنه لم يشأ أن يترك الخدمة العسكرية، ولا يريد أن تفتح دكانًا ولكن هذه شروط زوجته، وضغوطها عليه، ولا يريد أن يسافر لدولة خليجية مثلما يفعل خلق الله، وأنه رفض السفر لأى دولة، وأنه الذى ربى الأجيال ووقف أمامه جنود مرفوعة الهامة أشداء، أقوياء يحترمونه وينفذون أوامره، كيف له أن يشترى بمعاشه تذكرة سفر للطيران لدولة بها رجل يأمر وينهى فيه.

كنت أوافقه تمامًا بل وأشجعه على تصوره الجميل، وقال إننى مثله الأعلى، وقال فى وجهى ها أنت فى حجرتك فوق السطح، لم تبرحها، لم تسافر لتجمع الفلوس، بل بفلوسك القليلة كنت تشترى الكتب. ابتسمتُ وقلت إننى لست مثلاً أعلى، فقط لا أسافر لأشتغل فى بلاد غريبة، وأنا لا أهوى الفلوس كثيرًا، وأنا أحب حياتى البسيطة وهذه الحجرة فوق السطح. كان الباب مفتوحًا، أطلت أمى برأسها علينا:

ــ يسعد صباحكم..

دخلت علينا، وتحمل لفة تحت طرحتها السوداء. وبعد أن سلمت، جلست بجوار عطية، ثم أخرجت اللفة، وطلبت منه أن يعطيها لأمه وهو فى طريقه لدار زوجته. وحلفته أن يذوق منها، وهمست بود قائلة:

ــ فطيرة ساخنة. تفعل هذا وهى خجول مثل طفلة.

طبطب عطية على ظهرها، ومال على رأسها وقبله، طبطب عليه وقالت:

ــ أنت مثل جابر يا عطية.

عبرت الشمس حجرتى إلى الغرب، فافترش الظل سطح البيت؛ فبادرته قائلاً:

ــ وما المشكلة؟

أخيرًا أفصح: كيف يلف حول الزبون وينحنى ويقيس، بل وكيف يحاول أن يقنع كل شخص بجمال القميص أو الجلباب، كيف يساومه الزبون وكيف يمد يده وكيف؟!!

ثم وقف أمامى وهو يقول بأسى:

ـ أكلت الثعابين فى الصحراء..

عشت فى جبال اليمن..

كيف لى أن أنحنى للزبون؟

كيف لى يا جابر؟!

ودمعت عيناه.

أفهمته أن للدنيا وجودها وشموسًا وظلالاً، وعدلاً وظلمًا، وعلينا أن نعيش كل الوجوه خاصة إذا فرضت وجهًا عينًا.

ـ افتح دكانك يا عطية

وعندما نادت علينا إفراج لنأكل نهض ورفض الأكل، وقال إنه سيمضى حالاً ليعطى الفطير لأمه. دفس رجليه فى حذائه، وشد الجاكت الأزرق ليلبسه، وحين مددت يدى لأسلم عليه لم يمد يده بل نظر فى عينى طويلاً، ثم انهمر فى البكاء. هالنى ذلك، وأخذته فى حضنى.

ـ ماذا يا عطية؟

أفرغ سر حزنه وهو يسأل باكيًا:

ـ أكتب الدكان باسم من؟ مراتى أو أولادى؟

هززته هزة خفيفة، وقلت بدهشة وتحذير وتهديد وغيظ:

ـ باسمك.. اسمك فقط يا عطية!

ـ دكانك اسمك يا عطية.

مشى بسرعة الهارب. بعدما أوجعنى، ورأيت لفة الفطير على الكنبة.

أخذتها وهرولت خلفه من الباب إلى درجات السلم حتى ممشى الحديقة الصغير.

كان واقفًا مع أبى، وفهمت أن أبى طلب منه أن يمر عليه فى وقت آخر ليساعده فى خلع شجرة نشفت من مكانها وقال عطية:

ـ حاضر

مددت له يدى باللفة، مالت ابتسامة على جانب فمه، أخذ اللفافة، سرنا قليلاً حتى الباب الخشبى الكبير ثم هتف بسرور:

ـ هل عرفت أنى خطبت بنتًا اسمها هدى.

رد فى سعادة وهو يدعك جبهته بيده اليمنى:

ـ سأحضر الفرح.

مشى.

وقفت على عتبة الباب أتابعه وهو يمضى كعجوز بكتفين مائلتين للأمام فى طريقه لأمه. وأنا أسأل نفسى أين راح شبابه، وكيف فارقته ضحكته، ولماذا تهدل الكتفين؟!

زهو الفظاظة

ـــ جابر

سمعت الصوت ينادى بقوة وحماس، وأيقنت أننى المقصود. توقفت، ونظرت خلفى. شارع البحر طويل ممتد، امتلأ بالناس والعربيــات، نظــرت على الجانب الآخر، لم أجد أحدًا، حين هممت بالمشى نادانى الصوت مــرة أخرى، ولما نظرت بجانبى على الرصيف كان «إسماعيل» يجلس أمام دكان جديد، لونه زاعق، من تلك الدكاكين التى فتحت عنوة على الأرصفة وشقت البيوت. كان يجلس وبيده الشيشة ويضحك ملء شدقيه، لوح لى ونــادانى. ابتسمت داخل نفسى، وقلت: ياه.. إسماعيل مازال حيًا يرزق!!

وكنت كلما تذكرته أسال نفسى تُرى فى أى سجن هو الآن؟! وعلــى أى برش يعيش؟! وكنت أظنه مسجلاً خطرًا، لأننى فى صبايا كنــت أشــعر بخطورته علّى وأحيانًا سطوته. ضغط علّى مرات كثيرة وفى مرات قليلــة استجبت وتركت المدرسة وذهبت معه لدار السينما فى حفــلات العاشــرة صباحًا. كان له من أصحاب السوء ثلاثة وحاول كثيرًا أن أكون الرابع، ولم يفلح، كنت لا أهوى الهروب وأحب المدرسة وأبى يعطينى الفلوس لأدخــل دار السينما فى حفلات السادسة مساء. ذهبت تحت ضغطه مــرات بخــوف مبهم، كان يأخذنا قبل موعد السينما فندخل الغيطان، نختبىء عن العيــون. كان الآخرون يدخنون السجائر، وأرفض، يقترضون فلوســى ليــدخلوا دار السينما.

ياه.. إسماعيل مازال حيًا يرزق!

قام بحفاوة شديدة وسلم علىّ، وجذبنى بيد قوية ليحتضــننى، وبــود بالغ طبطب علّى، وسرعان ما أتى صبى بالكرسى وجلســت. ســألته مــن صاحب الدكان الذى يستضيفه؟ فضحك عاليًا كعادته، وضرب فخذى بيده.

ــ هذا محلى يا جابر.

وشدنى من يدى لأتفرج على المحل، ونحن ندخل، مسح برفق علــى مسجل ضخم جديد لامع تنطلق منه أغانى «عدوية».

للدكان واجهة لا بأس بها تطل على شارع البحر، عرض الدكان لا يتجاوز المترين، لكنه ممتد للداخل بعمق أمتار ويتلوى كثعبان، المرايا في الأجناب، وفى نهاية الممر فى صدر المكان صورة للرئيس السادات بزيه العسكرى وفى إطار مذهب. يفوح العطر من ثلاث بنات واقفات في عرض الدكان بجوار الفساتين المعلقة والمطوية والمعروضة. بنت منهن تلف رأسها فى إيشارب وإن بالغت فى أحمر الشفايف وخصرها النحيل المشدود بحزام عريض.

شدنى لأجلس معه أمام الدكان. كانت الشمس طيبة وهذا ما دفعنى فى ذلك اليوم البعيد أن أخرج وحدى لأتمشى لأقضى نصف النهار انتظار لموعد «هدى» فى السماء.

سألنى بغتة:

ـ أيوجد أجدع من هذا؟

قلت بدهشة:

لا.. سبحان العاطى.

لم ينته «شريط عدوية» أبدًا، طلبت منه خفض صوت المسجل قليلاً فرفض بشدة قائلاً:

ـ باب رزق يا صاحبى لا تغلقه.

واندهش لأننى لا أدخن السيجارة أو الشيشة حتى الآن، واندهش لأننى كما قال مازال منظرى نظيفًا مهندمًا ومؤدبًا. ابتسمت، وأنست لوده البالغ، وأنا صبى لم أكرهه. كنت أخافه، لم يؤذنى سوى بالهروب من المدرسة. آخر مرة هربت فيها من المدرسة عندما دق الجرس يومها للدخول فى صباح باكر إذ به، يشدنى من يدى، ويخنق رسغ يدى بيده القوية، وهمس: لن ندخل.. أنا وأنت وصبرى سنتنزه عند كوبرى الرباط.

عند كوبرى الرباط، كانت بنت ترتدى زى مدرسة المعلمات واقفة بارتباك ملحوظ، أخذ الفلاح فوق حماره يرمقها حتى انحرف الحمار وكاد

يصطدم بالأتوبيس الأزرق. اتجه إسماعيل إليها وشدها من يدها وعرفها علينا، وأتذكر أنه لم يقل أسماءنا الحقيقية، ومال على أذنى وطلب «شلن". أخرجت الخمسة قروش دون مقاومة، ونزلنا باتجاه النهر ونادى على صاحب المركب الذى يعرفه على ما رأيت وطلب المركب.

فى المركب تركنى وصبرى الذى لم أره منذ تركنا المدرسة الثانوية حتى الآن، وجلس هو مع البنت فى مقدمة المركب وكان يقبلها ويحتضنها كيفما اتفق. كنت خجلان بدرجة عجيبة ومتقززًا لحد ما؛ فالبنت كانت قبيحة وتشى ملابسها بالفقر وكانت مسكينة أيضًا. من خجلى وارتباكى وتقززى لم أعرف كيف فقدت توازنى وكدت أقع فى النهر وأمسك بى صبرى بصعوبة، وضحك إسماعيل «عاليًا» وضربنى على فخذى وطلب أن أكون رجلاً.

ضرب الشيشة برجله اليسرى، فجرى الصبى وانحنى وحملها بسرعة. وأخرج «إسماعيل» علبة سجائر أجنبية وقال فى سخرية:

ــ شقاء العمر.. هذا ثمن شقاء العمر. لم أنجح فى المدرسة، ولم أحصل على شهادة. اشتغلت على الأتوبيس.. نعم.. نشال. لم يأت الموضوع بهمه.. وأصبح عندى جواز سفر.. وسافرت للعراق.

لوزا!! دق قلبى حين رأيتها، يهزنى وجهها الطفل على جسد أنثى. لوزا الفتاة الصغيرة الجميلة.. نظرت لى وابتسمت، ترتدى فستانًا ضيقًا وقصيرًا وبأكمام. وقف «إسماعيل» واجهها دون بهجة أو ترحيب:

ــ أحضرت الطلب!

انتبهت للحنطور الذى نزلت منه لوزا عندما قفز العربجى وحمل الشنطة الكبيرة الثقيلة جدًا كما شعرت، لم يستطع حملها على كتفه فجرجرها لداخل الدكان.

دخل «إسماعيل» خلف العربجى والشنطة. ابتسمت لوزا وهمست بعينين فرحتين:

ــ إزيك يا أستاذ.

رددت السلام، ثم تركتني ودخلت خلف «إسماعيل"، بصصت عليهما ولم أفهم شيئًا. قفز عجوز أمامي ملتحيًا وممسكًا بيده بمبخرة، الدخان يتصاعد والرائحة فذة، ثم قفز لباب الدكان يبخر المكان، وهو يهتف:

ــ يبارك للحاج إسماعيل.. يا حاج إسماعيل يا بركة.

لم يعره أحد التفاتًا، غير الصبى الذى ترك فى يده قطعة نقود معدنية.

خرجت «لوزا»، وابتسمت لى، ثم قالت كلمة بشكل خاطف:

ــ زرنا

ابتسمت لها. أومأت برأسي. ولوحت لى وهى تضم يدها لصدرها الصغير ومشت ولاحظت كعب حذائها المرتفع كثيرًا.

جاء الصبى بشيشة أخرى. أمسك «إسماعيل» لاى الشيشة ولف عليه أصابعه، قلت لأجعله يستكمل حديثه:

ــ العراق بلاد جميلة.

أكمل بسرعة، ولاحظت قلقًا فى وجهه:

ــ نسوانها أجمل. اشتغلت فى أى شىء وكل شىء، مت فى بنت عراقية أجمل من صوفيا لورين، عرفتها فى شارع النهر، وجاءت لى فى المربعة ونامت معى فى حجرتى المتواضعة.

ترك الشيشة جانبًا ثم أردف:

ــ وهربت خوفًا من أبيها ومن القتل، وتحايلت على البشر حتى تركت العراق وسافرت إلى بلاد إفرنجية.. النمسا .

وضع الصبى أمامنا ترابيزة رخامية مدورة فخمة، وحط فوقها صينية ستانلس لامعة وعليها كوب شاى سكر خفيف وفنجان قهوة سادة. رشف من القهوة، ومسح شاربه. منذ كنا فى الثانوى والشارب فى وجهه، لكن شاربه الآن كث ويغطى شفته العليا تمامًا. ثم قال مبتسمًا كمنتصر:

ـ فى النمسا وزعت الجرائد، وأكل منى ثلج الصباح حتى لمتنى عجوز فى بيتها.....

ثم ضحك ضحكة قبيحة تبعها بشخرة وهو يكمل:

وحضنها، وشغلتنى عندها فى مطعم تملكه، وأنا غلبان وأرضى بنصيبى، غسلت صحون وصحون.. وصحون، وانتظرت حتى ماتت بين يدى ذات مساء بارد جدًا وأخذت ما ملكت يدى ورجعت..

وأكمل وهو يغنى بسخافة:

ـ رجعت وبراءة الأطفال فى عينيه

ثم نهض مثل عملاق مع أنه ربعة ومدكوك، وقال بتحد:

انظر.. محل فخم فى شارع فخم، وبه أجمل ملابس العالم. كله مستورد، من بورسعيد وأوروبا وأمريكا أم الكل. انظر محل يضرب بنزايون وعمر أفندى، فساتين وقمصان ولا مؤاخذة ملابس داخلية.. وها أنت ترى الانفتاح جعل من المحلاوية بنى آدمين، بعد لبس الدمور والزفير والألاجا يلبسون مثل الأمريكان.

مرت بجوارنا امرأة تهز ردفيها بافتعال، فصفق هاتفًا:

ـ عمار يا مصر!

نظر فى عينى مباشرة وهتف:

ـ انفتاح يا مصر!

بعض النسوة والفتيات أقبلن على دخول الدكان، فنهض وقال وهو يغمز لى:

ـ الرجل دبت.

وضرب الشيشة برجله اليسرى، وأزاح كرسيه وهم بدخول الدكان، نهضت وأدرت ظهرى لأمشى دون أن أقول شيئًا.

ـ جابر

استوقفنى صوته القوى. مد شاربه، وقال بزعيق وبهجة لا أفهمها:

ـ مر على.. أنا فى انتظارك.

تذكرت «إدوار» ذا الصوت الشجى الجميل، لما كان يغنى زمان:

«أنا.. فى انتظارك خليت

نارى فى ضلوعى وحطيت

إيدى على خدى وعديت

بالثانية غيابك ولا جيت...»

ما لا تشتهي السفن

زعق الرجل ذو القميص والبنطلون والطاقية على رأسه، زعق فى وجهى باستهجان:

ــ قبطى!! شارعنا ليس به أقباط!

وزغدنى فى صدرى لأمشى.

دهشت تمامًا. هل نسيت الشارع؟ مستحيل!

كان هنا.

البيت كان هنا. وكان «إدوار» وعوده الموسيقى الجميل كان فى حضنه هنا!

بدأت الشارع من أوله للمرة العشرين. هذا هو محل التصوير، وهذا هو البيت الواطئ ذو الشراعة القديمة، و.. وأين بيت «إدوار»؟!

لم أحب ذلك الصباح. وروحى كانت فى حاجة لإدوار.

لابد سأجده. فطنت للحل. فذهبت لأقرب دكان صاحبه قبطى. عم سمعان، سلمت عليه وسألته عن إدوار فقال بأسى:

ــ كلهم مشوا، وباعوا البيت.

وحين ظهر الأسف على وجهى، طمأننى بابتسامة عذبة قائلاً:

ــ الأستاذ «إدوار» أصبح شماسًا فى الكنيسة.

وكيف لى أن أبكى فى شارع مزدحم؟

لم أتجمل

لن أتجمل..

أدهشنى رفضهم لى كزوج لهدى.

هى التى فتحت باب شقتهم، فانبثق النور من وجهها فرحًا، شدتنى من يدى، ثم تراجعت، ثم نادت: ماما.

خرج الأب من حجرة داخلية، عدل نظارته، وابتسم وسلم علّى بطيبة. هى التى فتحت الباب، وأضاء وجهها عتمة السلم، وضغطت على شفتها السلفى وتمتمت: جابر! قبل أن تنادى ماما .

لم أكن أظن أننى سأرجع لسوق اللبن ولكن لسبب آخر، خلف هذه العمارة بشارعين وحارة بيت «أم فرج» و.. لوزا..

مصباح كبير يتدلى من السقف فوق ترابيزة السفرة المرصوص عليها أكواب ودورق وأرغفة خبز أسمر فى الركن. مسحت صالة الشقة بعينى سريعًا، شقة بسيطة ضيقة ومخنوقة. الصالون أكثر اتساعًا، ولكن جلوس أمها وأخوتها ضيق المكان. كنت أنظر فى عيونهم وينظرون فى عينى، وكلهم يبتسمون فى فضول، ولا أعرف لماذا لم يكن بيننا حوار، الأب البسيط يحاول عبثًا صنع حوار، فيما الأم المتعالية تلقى بالأسئلة المعتادة وغير المحببة والمعروفة إجاباتها سلفًا.

قالت لى هدى: إنهم يعرفون كل شىء وأمى ستفرح بك، فقط تقدم. لكن الأم اهتمت بدور الأم الرافضة المناقشة، الصارمة، المتوجسة.

أدهشنى رفضهم لى كزوج لهدى. لكن فكرة عدم الرؤية - المحتلمة - لهدى هى التى قهرتنى.

لمحت البكاء فى عينى أمى وطبطبت على، ضاحكتها، لكنى فشلت فى انتزاع دهشتها لرفضى، أبى لم يهتم، لكنه سألنى ثلاث مرات فى يوم واحد إن كنت أريد فلوسًا فوق راتبى. و«عمر» استاء. وأنا استغربت من سذاجتى.

لم أشأ اللجوء لصديق يناقشنى، فذهبت إلى عبد العزيز، وجدته نائمًا، أشارت أمه السمينة أن أدفع الباب فدفعته فصر فنهض عبد العزيز مذعورًا. قلت له رفضونى وبكيت.

بعد أن أفتح الشباك وشربنا الشاى وقرأ على بعض أشعار فؤاد قاعود. انتشر ضوء مبهج فى المكان وتمددت باسترخاء. مدد هو على الحصيرة وسألنى:

ـ كيف؟ حقًا.. كيف؟

كيف لم أحاول التجمل، كيف لم أوزع ابتسامتى على الجميع وأخص أمها بابتسامة ذات معنى؛ وكيف لم أداعب الطفلتين الصغيرتين وحتى لم أسأل عن اسميهما، وكيف لم أثرثر مع الأب عن الوظيفة والدرجة والترقية والعلاوات، حتى أخوها الأكبر لم أرغب فى أن أسأله عن حاله وماذا يتمنى فى الحياة؟ وكيف لم أسأل عن الدراجة المركونة داخل الشقة بجوار الثلاجة؟

سألنى عبد العزيز ليبدأ الكلام من سكة أخرى:

ـ ماذا قلت لهم عنك؟!

حاولت التذكر. لا أعرف. لأنهم كانوا يعرفون عنى كل شىء.

تذكرت.

عندما تكلمت الأم فى المهر والشبكة والمؤخر قلت، بالضبط قلت:

ـ لست وارثًا، ولن أرث.

انتفض عبد العزيز على ركبته، ثم زحف على الحصيرة، وتغيرت ملامحه لحزن سخيف، ثم قال:

ـ لن تدخل بيتهم مرة أخرى.

أدهشنى رفضهم لى كزوج لهدى! لكن دهشتى الأكبر أننى لم أحب المكان، لماذا لم أحب المكان رغم أن بيت أم فرج ولوزا خلفهما على بعد شارعين وحارة؟

أخذ من يدى كوب شاى فارغ وسألنى:

ـ فيم تفكر؟

دسست قدمى فى الحذاء وسألته أن نخرج ودعوته على شاى فى مقهى «شلبى». ورحب بمكان لا يعرفه.

فى مدخل المقهى كان «شلبى» جالسًا فوق كرسيه. لم أعره التفاتًا، لكن المسكين عبد العزيز انتفض فزعًا حين زعق «شلبى»:

ــ أنا شلبى، صاحب المقهى، بإشارة أغلقها، ويكون مكانكم الزبالة.. يا زبالة.

ابتسمت لعبد العزيز الذى فهم بسرعة، وطلبنا شايًا، باغتنى:

ــ لكن هدى تحبك؟!

أومأت برأسى مؤكدًا:

ــ نعم.

لكننى استغربت لسذاجتى. لم أحمل فى يدى هدية أو علبة شيكولاتة! أو حتى وردة. لكن.. كنت أحمل فى قلبى فرحًا وحبًا يجرى فى صدرى مثل طفل يلهو فى سعادة. عندما سلمت عليها وأنا خارج كانت يدها باردة جدًا، وتحاول أن تبتسم عنوة.

انزعج عبد العزيز من زعيق «شلبى» الدائم، وطلب أن نمشى، كنت لا أود أن أرجع لحجرتى فوق السطح.

أقسم صاحب أخى أن يزوجنى أخت زوجته، وأقسم عمى أن يزوجنى ابنة خال زوجته، وقالت عمتى: إننى مثل القرع أمد لبره، وسألنى منصور: لماذا لا تتزوج واحدة من بنات عمك فى القاهرة. ثم حكى لى حكاية لم تحدث عن شخص أعجب بخمس بنات لكنه احتار من تصلح زوجته فتزوجهن ليختبر نفسه.

لم أفعل شيئًا سوى أننى تركت قصر الثقافة وقررت أن أنتهى من قراءة أعمال «دوستويفسكى» دفعة واحدة. وأنا أقرأ «مذلون مهانون» دق الباب وفتح قبل أن أفتح. وخلع نظارة مستعارة، وتلفيحة حول الرقبة، ثم

رمى عن رأسه قبعة واسعة، فعرفته. زميل قديم جار عليه الزمن بعد التخرج من الجامعة فلم يجد ميدانًا للنضال، استاء منى ومن دوستويفسكى وسألنى فى قرف:

ــ أين الأم لجوركى؟

ابتسمت، وساخرًا قلت:

ــ قرأتها عشرين مرة.

بعد منتصف الليل كان يدعونى للعمل السياسى والانخراط فى عمل يطيح بكل العفن. كان فى مقدورى التواصل والنقاش ولكن حين طلب منى أن أترك هذه الكتابة وهذه القصص التى أفسدتنى كمناضل. وقفت متحفزًا، ثم استبدلت كراهيتى بالسخرية، وقلت له فات الوقت. وذكرته بأن طلاب سنة ٧٠ تخرجوا الآن، الثورة الثقافية الجميلة كانت داخل أسوار الجامعة قادها الشعر والحناجر، لم يستطع أحد أن ينقلها للشارع، وطلبت منه أن يمشى لأننى أريد أن أنام. أسقط فى يده. تمتم:

ــ لكننى من بلد بعيد!

أعطيته سريرى وغطائى، واحتفظت بحزنى، وآمنت باختلافى معه، جلست على الكنبة أقرأ «مذلون مهانون»، بدأ هو يتقلب من ضوء الشمس وأنا فى السطور الأخيرة مع «دوستويفسكى»:

ألقت على «ناتاشا» نظرة طويلة غريبة.

وقالت:

ــ فانيا.. فانيا.. كان هذا كله حلمًا!

أليس كذلك؟

ــ ما الذى كان حلمًا؟

وقرأت فى عينيها:

كان يمكن أن نسعد معًا إلى الأبد»

قام هو، ووضع على عينيه نظارة مستعارة، ولف تلفيحة حول رقبته، وكبس القبعة فى رأسه. وسخرت من فكرة تخيفه من لا أحد. مد يده بفتور، سلمت عليه، وعندما تركنى فى العاشرة صباحًا نمت نومًا عميقًا.

لكنه أفزعنى بخبطاته المتوالية، نهضت أتطوح وفتحت الباب من الداخل ثم رجعت وارتميت على السرير مثل جثة هامدة، وسمعت بكاء عطية، فاعتدلت، فطلبت منى أن أجرى لألحق بأمه حيث المشاجرة الكبيرة فى حارتهم بين حماته وأخواتها وأمه الوحيدة بينهم، همست بعد لأى:

ـ أتركنى استرح.

ورميت بنفسى مرة أخرى على السرير. كنت فى حالة من الإعياء، ربما «دوستويفسكى» السبب أو هدى أو ناتاشا أو عطية أو سذاجتى التى استغربت منها.

سذاجة طبعًا! لماذا لم آخذ معى أمى وأبى وعمى وزوجته وهى ترتدى البالطو الأسود اللامع، وأخى الأكبر وعمتى الكبرى؟ ثم لماذا لم أرتد بدلة كاملة؟ لماذا ذهبت بقميص نصف كم وبنطلون جينز؟ ولماذا حلقت ذقنى ونسيت رش «الكلونيا»؟ لماذا لم أقل لهم أن طلباتهم أوامر، ولماذا لم أنحن قليلاً وأنا أسلم على أمها؟ ثم هذا الطفل الصغير لماذا لم ألاعبه وأحمله على رجلى وأدعى أنه أجمل طفل رأته عينى؟!

خبط عبد العزيز الفنجان فى الصينية المدورة الصفراء واعترض زاعقًا:

ـ طلبت قهوة مضبوطة.. هذه زيادة.

أشار «شلبى» فقط باتجاه عبد العزيز فهجم الصبية فجأة فوقف عبد العزيز مبهوتًا، ووقفت لأدافع عن الصبى الذى يعرفنى ابتسم، وأفهمنى أنه مضطر لأن المعلم شلبى غضب من ملاحظة عبد العزيز. سحبت عبد العزيز من يده وخرجنا.

عبد العزيز لا يعرف المعلم شلبى، وأنا لا أعرف رباط العنق والابتسامة الواسعة فى وجه من لا أحبه!

لست وارثًا ولن أرث! ظل عبد العزيز يضحك بلا توقف، ويضرب كفًا بكف بعدما حكيت له عن المعلم «شلبى» وزوجته، فواصل الضحك، واستمر يضحك وهو يردد:

ـ لست وارثًا ولن ترث... هاهاها..

فطن عبد العزيز أنه سير بلا اتجاه، فيما كنت أثرثر بأشياء متداخلة عن موقعة مرج دابق، وثورة المكسيك ضد أسبانيا، ومتى بدأ صدور مجلة الهلال، وإعدام الزعيم محمد كريم، وقرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وتدويل القدس، وثورة اليمن، وموت جلال فى سيناء والذى لم يعد حتى جثة، ويوم شاهدت عبد الناصر وجهًا لوجه، والجنى الذى كان ينتظر أبى فوق شجرة النبق والفستان البسيط الذى ارتدته هدى يوم الخطوبة، وكيف ردموا النهر، والرخاء الذى وعدنا به السادات، ومتى أطلق اسم المملكة السعودية على مملكة الحجاز، وعندما وصلت ثرثرتى إلى اتفاق جنيف لمكافحة تجارة الرقيق وقف مندهشًا يشوبه خوف ثم ارتعد قليلاً ثم انفجر ضاحكًا وهو يقول لى:

ـ هل تسخر منى؟

ـ أبدًا.. من «البهلوان» إلى «الصهاريج» إلى «سوق اللبن».

وقفت فى الميدان، فوقف وسألنى بفراغ صبر:

ـ ماذا؟

أشرت له على بيت هدى. كان الأب جالسًا فى البلكونة وبيده الجريدة. قلت:

ـ بيت هدى.

قبل أن يصرخ قلت:

ـ لن نطلع..

ولكن بعد هذه العمارة بشارعين وحارة توجد لوزا.. هل تعرف لوزا؟

مضى معى مستسلمًا.

أمام بيت أم فرج.وقفنا.

كان الباب مغلقًا والنوافذ مغلقة.

تراجعت للخلف لكشك خشبى يبيع السجائر المستوردة والشـيكولاتة واللبان الملون.

همس صاحب الكشك:

ـ لا مؤاخذة.. الست أم فرج فى السجن..

والبيت مقفول.

ثم أجابنى:

ـ لوزا؟! ربك يستر على الولايا.

١٨ يناير

رغم الشمس الساطعة كان الصبح باردًا، ربما بفعل الليلة السابقة التى شعرت فيها بخطر متربص لنا جميعًا، إذا كانت القرارات الاقتصادية مباغته ومحبطة لكل آمال الناس التى وقفت تنتظر طويلاً على محطة قطار الرخاء القادم من الغرب والذى لم يأت. كنا نتناقش منذ أيام ونتبادل أوراقًا حول التردى فى الأوضاع، والمسجونين والسبب قصيدة شعر، والغياب الذى يعيشه الناس فى البعيد فى سفن الشحن التى تحمل الملابس المستعملة فى الذوق والأغانى، لا يعصمنا سوى أوراقنا التى عادت للمناقشة، ومجلات الماستر التى يحررها ويكتبها ويوزعها الكتاب والفنانون أنفسهم. ليلة أمس أغلقت المذياع ورحت أحسب سعر أنبوبة البوتوجاز وكيلو الأرز والكهرباء وأطرح الأسعار من صافى المرتب، أيقنت أننا دخلنا حسبة برما مع أمريكا، فتمددت على سريرى، أحسست بافتقاد الأصدقاء. أما زملاء السياسة فقد شدوا من أزرى أخيرًا وأصبحنا أكثر جدية لأن الواقع أفزعنى خاطر أم مصيبة ألمت بها.

ــ ماذا يا زينب؟

ضربت على صدرها وهى تقول باستغراب:

ــ إنت نائم يا سى جابر!

قبل أن أرد كان خلفها أبى الذى اصطدم بها عندما تخطى العتبة وقال بجدية:

ــ اهمدى يا بنت

صرخت زينب النوبية:

ــ اهمد.. لن نجد اللقمة لنأكلها يا عم السيد.

فهمت، فأخذتها من يدها وأجلستها على حافة السرير، وجلس أبى على الكنبة، وصعدت أمى لاهثة خائفة، كلهم ينظرون إلّى باستفهام.

ــ كل شىء له حل.. لابد سيرفعون المرتبات ببعض الملاليم.

وكان الصبح باردًا رغم الشمس الساطعة.

فى الليلة السابقة تكوم الجميع فى حجرتى التى فوق السطح: أبى جلس على ركن من الكنبة، بجواره أخى عمر، وجلست أمى أرضًا بجوار باب الحجرة المفتوح، وبجوارها تلبد إفراج مثل قطة ودود، وزوجة أخى تجلس بجوار باب الشرفة، وزينب النوبية أقعت بجوار المكتبة ذقنها على ركبتيها المقرفصتين مثل تمثال من الأبنوس، وعم أبو سعدة صاحب أبى من قبل ردم النهريجلس كالنائم فى مكانه بجسده الضخم وكرشه المتهدل، وبعض عيال لا أعرفهم، كانوا يتكلمون فى الأسعار والنار ثم يعرجون إلى بعض الذكريات القديمة الجميلة، ويتذكرون الأموات خاصة لحظاتهم الأخيرة ويتكلمون عن خير زمان، ثم يتشنجون لقرارات السلع التموينية. تصرخ زينب النوبية:

ـ هل نحن فى حرب؟!! يا ناس...

ابتسمت ساخرًا. مرت آخر الحروب!

كنا نلوذ ببعضنا، ونعتصم فى حجرتى التى فوق السطح، ويلفنا أحيانًا بعض السكون. يشدنى الحائط الأبيض لحروفه السوداء لكلمات ما زالت زاهية!

«أجمل أنهار العالم لم نرها بعد

أجمل أطفال العالم لم تكبر بعد

أجمل أيام العمر لم تشرق بعد

وأنا لم أهمس فى أذنك

أجمل ما أتمنى أن أهمس لك به»

آه يا ناظم الحلم كان أكبر من سجنك الانفرادى. هل يكفى أن نردد أحلام الآخرين؟.

أطل علينا عطية بصمته كأنه شبح فى الظلمة، قلت ادخل يا عطية، فدخل وجلس على حرف السرير بجوار زينب النوبية. جلس صامتًا، ثم

انهمر فى البكاء مثل رجل قرر أن يبكى على الملأ بلا خجل:

«إحجل بعيد يا موت

بعيد عن الناس والبيوت»

أمى آخر من ترك الحجرة، طبطبت على ظهرى، ثم همست فى رجاء:

ـ خللى بالك من نفسك.. شفنا غلاء سنوات وسنوات..

كنت أعرف خوفها علىّ، قالت ذلك بوضوح منذ أسابيع عندما لاحظت تردد بعض الزملاء الذين لا تعرف حتى ملامحهم، كانت تحرص على تنظيف الحجرة بنفسها. وترتب الأوراق والكتب وترص مجلات «الماستر» والأوراق المطبوعة، وبعض الأوراق المنسوجة بالأيدى.. كل الأشياء الآن منسوخة بالأيدى وفى الذاكرة.

«يسيل دمى؛ أبصر الشمس تسقط فى النهر.. هاتان

عصفورتان تنازعتا عطب الغصن..

لا تلد الآن هذى الحقول سوى ولعى بالبكاء»

بعض الأوراق التى تعرف شكلها كانت تدسها تحت الكنبة، لا أزعل من أمى لكن أبص فى عينيها. ترد بصوت حان:

ـ بعيد عن العين

فأتذكر همس هدى لى:

ـ تثق فى الجميع كل الثقة.

كان الصبح باردًا خاصة بأصدقاء راحلين إلى بلاد الحجاز وتحت الغيوم وفى دقائق بالدولار، ومن قهر إلى قهر، وراحلين من صمت إلى هلع.

كان الصبح مزدحمًا بالوحدة والأفكار والهزيمة الشخصية. ولم يكن أمامىَ سوى «سعد» أزوره، سوف يستقبلنى بحرارة مبالغ فيها، ويشدنى

إلى حجرته ويطلعنى على آخر الكتب وعلى كثير من أفكار الطلبة فى الجامعة، أسترجع روحهم، أغانى الشيخ إمام. سيقف «سعد» فى وسط الحجرة، يعدل نظارته على أنفه، ويقول:

ـ بالعكس.. الأمر الآن أصبح فى حاجة أكبر للثورة!

سأسمع بعض شعره الحماسى، ثم نتكلم عما حدث بالأمس من قرارات مفاجئة كأنها قرارات عسكرية لرفع الأسعار، سأقول وجهة نظرى ليتلقاها بهدوء. هدى تحذرنى من «سعد» بلا مبرر، لا تكاد تعرفه، لا ترتاح لشخصه، فقلت لها إنه الحماس.. الحماس يا هدى. سوف أتحمل حماسه لكننى سأحدثه عما أشعر به، بذلك المنحنى الخطر الذى انحرفت فيه السلطة وانجرفت إليه اليد البلد. يثق فى آرائى، لكنه سيتقبلنى بحفاوة، وسيحكى لى عن مجلات الحائط فى الجامعة، ويمكننى أن أتناول معه الغذاء .. ياه .. لقد تخطيت السكة الحديد «الشون» الآن فى ظهرى، قطعت المسافات الطويلة بسرعة حيث أخذنى التفكير والتصورات، لم أنتبه للشارع ولا للناس،لا للوجوه ولا للتحفز، كنت فى طريقى فقط لسعد. وحين هممت أن أدخل شارع «سعد» لفت نظرى سيارة سوداء غريبة، وعلى ناصية الشارع يقف ضابط بارتباك ما، تمهلت، وتراجعت للف بشكل غير ملحوظ، حملقت، فى بطن الشارع فرأيت بعض الجنود المتحفزين، فقط، ولا شيء، لا أطفال ولا نسوة ولا رجال.

سكون، لم أدخل الشارع، أدركت أن فى الأمر شيئًا، ثم أتابع ما يحدث فى هيئة رجل لا يفهم. هل هم الآن فى بيت سعد؟ عند هذا الخاطر مددت الخطى، وأسرعت حتى انتهيت من الشارع الطويل. ثم قفزت فى أتوبيس لا أعرف اتجاهه ونزلت فى وسط المدينة. الآن ستكون بعض البيوت فى المحلة مراقبة. الأمر يحتاج الاحتياط. شممت رائحة غريبة فى الجو، رائحة صمت وترقب وانقضاض. حدثنى قلبى بأن سعر أنبوبة البوتوجاز سوف يفجر كل أنابيب البوتوجاز، ودخلت مقهى كبير، معبأ بدفء الأبخرة ودخان الجوزة والسجائر، اتجهت للتليفون، فيما تصل إلى أذنى:

ـ مصر كلها والعة..

ـ من أسوان للإسكندرية...

قلت لزوجة أخى فى التليفون:

ـ أنا جابر.. قولى لأمى أنا مسافر.

وضعت السماعة.

أسرعت الخطى باتجاه موقف السيارات، اندسست بين عشرة أفراد تزدحم بهم السيارة القديمة المتهالكة.

لم أشعربالمطبات والخبطات ولا بالتراب، لم تدهشنى وتجذبنى تلك التى كانت تشغلنى وأنا فى طريقى لزميلى «منعم» سابقًا، كان جزء من استمتاع بالرحلة لمنعم هو استمتاعى بالطريق الزراعى المتعرج وسط الغيطان أذكر يوم أدهشتنى عيدان التيل النحيلة مشمشية اللون فى غروب ليس مثله الآن.

استقبلنى بالأحضان كعادته، وأوصى بالغداء، استلقيت فى حجرته الخشبية ذات النافذتين الكبيرتين المتقابلتين، وبحماسة وفرحه عرض علّى برنامجه الطيب مثله بأننا سنلتقى بفلان وعلان والحاج والشيخ وخالته والعيال ـ هكذا يقول عن أصحابه ـ فى مقهى النشاط حتى استوقفته وحذرته وأفهمته: إننى هنا.. ولست هذا وعندما فتح فمه دهشة، قلت:

ـ نعم.. اعتبرنى غير موجود، لا أريد أن يعرف أحد بوجودى.

بعد ساعة واحدة كانت الحجرة الخشبية تعج بالأحباب والأصحاب والأخوال، والأعمام الذين جاءوا ليرحبوا بى. أنا أحبهم وهو يعرفون، بل كنت أجيىء إليهم فى المقام الأول، كان الصدر يتسع لكل حواديتهم الخرافية البديعة، ودائمًا أهفو للقائم إلا هذه المرة، لكننى ابتسمت فى وجوههم وهرشت فى شعرى كثيرًا، وراهنت على أن الأمر سيكون فى اعتبارهم ليس غريبًا. أنا فقط من يرى اللحظة غير عادية وغريبة، وعلى بشكل أو بآخر النجاح فى أن أجعل الأمر عاديًا وخاصة بالنسبة لمنعم نفسه. لم أكن

فى شوق إلى غيطان بقدر شوقى للوحدة، كنت أحاول أن أرتب الأمر حتى فاجأنى منعم بقوله:

ـ أسمعت عن المظاهرات؟..

بثنى فرحًا مبهمًا، قلت بسرعة:

ـ نعم.

وقف فى وسط الحجرة سعيدًا كطفل

ـ الأمر أكبر من هذا..

أكد منعم بفرح الطفل:

ـ الإذاعات الأجنبية تقول إن ثورة شملت كل مصر.

فى المساء كنت معهم فى مقهى النشاط ـ وقد أطلقنا زمان اسم المقهى نسبةً إلى رسوم الفنان صلاح جاهين عن مقهى النشاط الذى يرقب فيه الكسالى والخاملين ـ الليلة لم يلعبوا الدومينو أو الكوتشينة بل حطوا الراديو على تربيزة وتحلقنا حوله.

وخبط «خليفة» على الترابيزة مائة مرة مؤكدًا إنها ثورة، فيما قال «فكرى» إنها الشيوعية التى تريد أن تقضى على الرئيس المؤمن. تناثرت الآراء، وتطرفت وتحمست وكاد الاشتباك يكون بالأيدى بالضبط بديلاً لمناقشات الأهلى والزمالك ـ لم يلتزم أحد الصمت، حاولت أن أوضح أن ما حدث احتجاجًا، كاد «خليفة» أن يلطم، وولول:

ـ احتجاج!!!!

سيطرت على الموقف مرة أخرى، بهدوء حاولت أن أتحدث عن الأزمة الاقتصادية التابعة للأزمة السياسية وحالة الاحتواء التى تريدها أمريكا.

وقف «خليفة» بعد أن رفع من صوت المذياع، وهو يزعق بعنف وغضب:

ـ سمعت يا جابر.. سموها انتفاضة الحرامية!

كلمة انتفاضة هزت أوصالى وانفتح صدرى برضا وانشراح، ثم تكلمت بحماس عن الدولة التى تخلت عن إنجازاتنا فى المصنع ـ والقطاع العام وبعض الأحلام الاشتراكية، فضرب، «فكرى» بقبضته على الترابيزة كأنه يهددنى:

ـ الشيوعية.. الشيوعية.

لم يستطع أحد السيطرة على المناقشة إلا صوت الراديو الذى أعلن:

«حظر التجول فى البلاد اعتبارًا من الرابعة مساء كل يوم»

هنا صمتنا جميعًا إلى أن قال منعم:

ـ حظر تجول!!

هذا يعنى أن المظاهرات تجتاح مصر.

لم ينبس أحد. فقلت:

ـ بل.. المظاهرات تهدد الحكومة الآن.

صرخ فكرى بعد وقت:

ـ حظر تجول....!!!

إنها حرب إذن.

وترددت أسماء السادات، سيد فهمى، ممدوح سالم، فقام عم شعبان صاحب المقهى ولم الكراسى واعتذر وأغلق المقهى. رحنا لبرد شديد فى فضاء الغيطان، حاولت مع منعم وخليفة أن نفهم الوضع. وصلنا لبعض الأشياء. يناير بارد جدًا. طلبت منهم أن نرجع للحجرة الخشبية، لنسمع الإذاعات.

فى اليوم التالى نهضت مبكرًا مقررًا السفر للقاهرة للمشاركة فى المظاهرات، فسخر منى «منعم» قائلاً:

ــ كل شيء انتهى.

وأغلق الباب، وأصر على أن خروجي عبث، ولما حاولت أن أدفعه وأخرج عنوة، قال في تحد:

ــ هل تريدون أن تركبوا كل شيء.

أسقط في يدى فعلاً. حقًا لم نقررها، ولم نطلقها، ولم نكن طلائعها، لكنها حدثت بوعى جمعى.

صرخ منعم:

ــ اتركوهم إذن. لا تسرقوا انتصارهم.

وهو الذى خرج، وهو الذى هبد الباب خلفه ومشى.

تركنى وحيدًا مثل فأر فى مصيدة، أكاد أتمزق من عجزى، كلهم انتفضوا فى الشوارع، فرحوا بامتلاكهم الشارع فى احتجاج على المعاناة دون مجلدات أو حتى منشور يحرضهم على الخروج إلى الشارع لمواجهة السلطة والأمن والبوليس.

ظللت فى الحجرة وحدى فيما هو فى مقهى النشاط.

بعد عودته طمأننى على سلامة الجميع خاصة «خليفة الذى اكتفى بالجلوس فوق سطح دارهم ناظرًا للسماء بلا كلل. وقال إن فكرى لزم «الزاوية» بجوار الترعة الكبيرة، بينما الطلاب سافروا لجامعاتهم ورجعوا فى نفس اليوم، فيما قال الراديو إن كل شيء تمت السيطرة عليه وإن حظر التجول فى البلاد سيبدأ فى السابعة مساء بدلاً من الساعة الرابعة. وفى الإذاعات الأجنبية سمعنا عن: الانتفاضة، والمظاهرات، والدبابات فى الشوارع، والقنابل المسيلة للدموع. والبوليس المنطلق فى الشوارع واجتياح المحلات وتكسير رموز الثراء فى العواصم.

قلت لمنعم:

ــ هل سأل على أحد؟

رد وهو يدخن سيجارة:

ـ نعم.

قلت:

ـ قل لهم أتيت لأكتب قصة عن الفلاحين.

ضحك منعم فى شبه سخرية وهو يقول:

ـ الأمر لا يعنيهم الآن.

امتلأت عيناى بالدموع.

جرى منعم إلى، احتضننى بكل قوة، وهو يقول بحنان بالغ:

ـ أنا أحبك يا جابر.. ليس من المهم أبدًا أن تكون فى المظاهرات..

أجلسنى أمامه، مسح دموعى بكفه الخشن، وأردف:

ـ ستذهب مظاهرات، وسيذهب رؤساء ويأتى رؤساء وستظل أنت ياجابر.. لقد علمتنا كل شىء ولما انفتح الباب فجأة رأيت «منصورًا»

ـ يااااه...

هتفت. كان طوق النجاة الذى رماه أحدهم لى. تمتمت بدهشة فرح

ـ منصور!!

تعانقنا طويلاً، وحكى لى عن الانتفاضة فى الإسكندرية، وأخبرنى أن كل شىء قد سكن بعد إلقاء القبض على كل الناس المشتبه فيهم وغير المشتبه فيهم.

ضرب منصور بانتعاش وهو يقول ضاحكًا:

ـ أحكى لك حكاية حدثت.

إنهم يبحثون عن استئجار سجون.

خرجنا للحقول ولسعة برد تنعشنى، وكنت مندهشًا من هذا الشعب

المصرى الذى لا تسوقه عصا أو صفارة كما أدعو، إنه يقرر ماذا يفعل فى اللحظة التى يختارها.

صرت سعيدًا، مهووسًا.

ــ تصور يا منصور، تنام ليلاً، وتقوم صباحًا وأنت لا تعرف ماذا سيفعل هذا الشعب العريق.

وصعدت تلا برشاقة شاب وقلب مكلوم، وزعقت حتى شرخ صوتى حنجرتى، لعل صوتى يصل إليهما:

ــ سأتلو عليكما للمرة الألف شكاوى الفلاح الفصيح، الفلاح المصرى الذى شكى فى الأف الثالثة قبل الميلاد وقال:

«إن ابن مرو» لا يزال مستمرًا فى غيه وإن حواسه قد عميت عما ينظر، وصمت عما يسمع، وقد ضل عما ينسب إليه. انظر إن مثلك كمثل بلد لا عميد لها، أو كطائفة لا رئيس لها، أو كسفينة لا ربان لها، أو كعصابة أشقياء لا مرشد لها.. انظر إنك حاكم يسرق وعميد قرية يقبل الرشوة، ومفتش إقليم كان يجب عليه أن يقطع دابر التخريب لكنه أصبح نموذجًا للمجرم».

احتضننى منصور، ربت علّى، كنت أرتجف بشدة. خاصة حين عاودتنى حكاية أبى حين خرج له الجنى من النهر، رجع مذهولاً وهتف بأمى: دثرينى يا جميلة. ولفته فى الحمل، فارتعش، وأعطت له اليانسون، اصطكت أسنانه.

ناولنى منصور الشاى الساخن، وكنا فى الحجرة الخشبية، فرفص «منعم» فى ركن الحجرة وأخذ يغنى أغنيات للشيخ إمام. فرت دمعة من عينى. سكت «منعم» لفنى منصور بذراعه.

ــ ماذا يا جابر؟

قلت مؤكدًا على كل حرف:

ــ إننا مثقفون عجزه.

وبكيت، وأخذنى البرد لبيته فغبت عن الدنيا.

حين فتحت عينى وجدت «منصور» يبتسم، وسيد الطبيب صديقنا فى الجامعة يبتسم فى رضا. قال لى:

ــ عالجتك بسهولة.

فى الصباح الثالث فرد «منعم» الجريدة أمامنا وقرأنا:

«كشف تنظيم شيوعى سرى وراء مظاهر التخريب».

نظرت لمنصور فى دهشة، وضحكت، وضحكت عاليًا، ضحكت ساخرًا، ضربت كفًا بكف، ضحكت حتى دمعت عيناى. تنظيم شيوعى وراء المظاهرات!! ضحكت، ثم قلت محاولاً الكلام خلال ضحكى:

ــ الخيبة إن الشيوعين يصدقوا!

وانطلقنا فى الضحك.

بينما كان بالفعل الشيوعين والعمال والطلاب والإخوان والصحفيون والموظفون، وجماهير المظاهرات، كانت فى السجون رهن التحقيقات.

وقف «منعم» على الكرسى وقال والجريدة بيده:

ــ اسمعوا..

وقرأ:

«ضبط آلاف المنشورات، ومخازن للوثائق».

ضحكنا حتى دمعت العيون.

واصل:

«وفى ذات الوقت قررت الحكومة إلغاء قرارات رفع أسعار السلع التموينية إلى ما كانت عليه قبل ١٧ يناير ١٩٧٧».

عندما رجعت للمحلة، وعندما وقفت على عتبة بيتنا وجدتهم جميعًا

ينظرون لى فى ذهول. ظنوا أنى لن أرجع، أخبرونى بعدد من الأسماء الوهمية سألت عنى من خلال تليفون أخى عمر، ورجال ليسوا من سنى سألوا عنى. قالت أمى وهى تمسح دموعها بطرف طرحتها السوداء:

ــ مخبرون.. والله مخبرون.. أعرفهم..

أشم رائحتهم. عضضت شفتى السفلى، لاحظتنى أمى، شدتنى جانبًا، همست لى فى أذنى:

ــ شلت الورق كله وحرقته فى الفرن.

قال أبى بصوت مرتفع رسالته بسرعة:

ــ كل... واشرب الشاى... واذهب لهدى..

أخوها جاء وسأل عنك كثيرًا.

ظللت قلقًا وأنا أجلس فى بيت هدى، أطل من نافذة واسعة على ميدان واسع.

جدتها كانت بجوارى، تربت علّى بحنو بالغ:

ــ لا تخف يا جابر.

طبطبت عليها:

ــ من أى شىء أخاف!

همست بكل خبرتها العجوز:

ــ يعنى.. أصل... أصلهم قبضوا على «سعد».. سعد بن مصطفى.. و...

تأملت وجهها المتغضن، أكدت وهى تمسك بذراعى:

ــ قبضوا على سعد.. لو عندك ورق احرقه.

صعقت من تعبيرها الدقيق: ورق. بصت فى عينى طويلاً. ابتمست وقلت:

ـ اطمئنى.

ثم رأيتها قادمة من بعيد تمشى على مهل، رأسها تطرق لأرض. مشيتها مهمومة مستسلمة لها جس سىء، أطللت بكلى من النافذة لتراني، رفعت عينيها باتجاه النافذة. رأتني هدى أخيرًا، لوحت لها كطفل، دبت الحياة إليها كأم، أسرعت الخطى، فتحت باب الشقة، سمعت صوت أقدامها تضرب الدراجات بقوة وفرحة وتعجل. استقبلتها عند الباب، أمسكت بيديها الباردتين، نظرت فى عينيها، وحشتنى كثيرًا. تكاد تبلع ريقها بصعوبة:

ـ أين كنت؟

فى الداخل جلسنا القرفصاء على الكنبة، شددنا باطنية بينة اللون على نصفنا الأسفل، تسرب الدفء إلينا، حكيت لها عن يوم طويل اسمه ١٨ يناير.

لا أعرف كيف قادتنى قدماى إليه هذه المرة لم يترك لاى الشيشة من يده، لم يقم مبتهجًا ليحتضننى إسماعيل أصبح تاجرًا، مق أيضًا، امتلك هذا الحس اللعين فى معرفة الاحتياج؛ لذا لم يقم من مكانه، بل أخذ نفسًا عميقًا. أعرفك يا إسماعيل، أعرف أنك لست غبيًا، الثانوية العامة ليست مقياسًا، كنا ننجح فى اختبارات مادة الأحياء وأنت تصنع «منطًا» من فصل ٢/٣ إلى سطح المسجد بالمدرسة. وأنا فى احتياج لك الآن. اترك الشيشة ياإسماعيل فأنا صاحبك القديم ذو الملابس النظيفة والروح الطيبة كما كنت تقول، لم نتفق أبدًا فى الهرب من المدرسة أو لعب الورق والقمار، لكنك كنت دائمًا تعزنى وتفرض حمايتك علّى، وكنت بسببك محسودًا من زملائى الطلبة الآخرين الطيبين مثلى.

لم ينهض إسماعيل، بل وضع رجلاً فوق رجل وكان سن حذائه البنى المدبب فى عيون المارة، وبحركة تبدو تلقائية شد كرسيًا لجوار كرسيه. كانت شمس الغروب تتبعها سحب سوداء باردة. أشار أن أجلس فجلست.

بحس التاجر مال إلى قليلاً متسائلاً:

ــ خيرًا؟

ــ أبدًا.. دائمًا تطلب منى أن أمر عليك!

ــ اليوم.. الليلة.. الآن ماذا تريد يا جابر؟ لا تضيع وقتك ووقتى.

ما الذى فضحنى؟ خطواتى أم ترددى أم عيونى؟ كيف جلس هكذا كأنه ينتظرنى. تماسكت وقلت بود قديم:

ــ ألن أشرب شايًا؟

كان دكانه المفتوح فى عمق العمارة مزدحمًا بشتى أنواع البنات والسيدات والمسجل يصرخ بأغنيات هابطة تشيع مرحًا رغم ذلك!! وبجوار صورة السادات وضع صورة له أكبر حجمًا وبشرته السمراء أكثر التماعًا كما أنه يضحك ملء شدقيه، فيما ألوان صورته أكثر حدة. قبل أن ينفد صبره وضعت كوب الشاى وقلت:

ـ أريد ٥٠٠ جنيه

ركن الشيشة، ثم انفجر ضاحكًا، وقال بعطف بالغ:

ـ كل هذا المولد من أجل ٥٠٠؟!

فضحكنا معًا، ثم قال:

ـ تحت أمرك يا جابر!

سكت قليلاً ثم سأل:

ـ هه.. أى شغلة تريد؟

سألته باندهاش:

ـ شغلة؟!

وأفهمنى أننى صاحبه على عينيه ورأسه، ولكن فلوسه ليست مشاعًا وإلا خربت من زمان، فلوسه تشتغل، تعمل، وأفهمنى أنه ليس شئونًا اجتماعية. وخيرنى أن أقف على البنك أى أبيع الفساتين وحمالات الصدر، أو أمسك الخزينة مع البنت الأمورة الدلوعة الجالسة هناك ــ هكذا قال لى ــ نفث أكبر كمية دخان من أنفه وهو يعرض الإمكانية الأخيرة مع الست وهى تعقد الصفقات، فاستبعدت بسرعة مسألة الست، رغم أننى لا أعرف أية ست هذه، ثم اندهشت من نفسى، كيف؟

على أن استبعد كل شىء. قلت بدهشة وتأكيد:

ـ سأرد لك الفلوس.. أنا محتاجها فقط لفك أزمتى لأننى سأتزوج بعد شهر ضرب الشيشة برجله وهو يقول:

ـ تشتغل عندى.. بالفلوس

اعتذرت عن كل أقوالى، وقلت له إننى لا أريد فلوسًا، وقبل أن أنطق فقط أتركنى، ركنت سيارة صغيرة أنيقة بجوار الطوار أمام الدكان، ثم انفتح الباب، ثم امتدت قدم صغيرة بحذاء لامع أسود كأنه نزل حالاً من الفاترينة،

حطت القدم بالحذاء على حافة الطوار، فكانت الساق البيضاء والركبة التى يعلوها فستان أسود ضيق، وحين خرجت بجذعها وأغلقت الباب بثقة رأيت وجهها وشعرها الناعم: لوزا!!

نهضت لأستقبلها، فقال إسماعيل على الفور:

ــ المدام

تمتمت باستغراب:

ــ لوزا!

ضحك إسماعيل عاليًا، ثم جلس وشد لاى الشيشة وقال:

ــ لوزا!! هذا زمان.. زمان سوق اللبن.. الآن.. فايزة.. فايزة... إسماعيل.

ضحكت لوزا، ومالت إلى إسماعيل وهمست فى أذنه بشىء ما. فاحت رائحة عطرها وغمزتنى. نهض إسماعيل مهرولاً، وطلب منى أن أجلس مع المدام ــ هكذا ــ أجلس مع المدام حتى يرجع. جلست لأن فضولى دفعنى لهذا. قبل أن أوافق كان قد مضى، وكانت قد جلست. وضعت ساقًا بيضاء فوق ساق بيضاء فارتبك عمال المحل والمشاة على الطوار وأنا طبعًا.

كيف صارت الفتاة الصغيرة تضج بهذه الأنوثة؟! ولما سألتها عن بيت سوق اللبن ادعت أنها لا تعرف شيئًا، وأن أم فرج تزوجت من تاجر شباشب فى بورسعيد. تنكر إذن كل شىء عن سجن أم فرج، وكل الحكايات التى سمعتها عن أم فرج ورسمى، وعندما سمعت اسم رسمى بصقت بقوة باتجاه الشارع، وتمتمت بقرف:

ــ واطى

لم أفهم، لكنى رغبت فى أن يستمر الحديث بيننا، كلمتها عن الطقس البديع فى أوائل الشتاء، فكلمتنى عن «عشة» فى رأس البر بل ودعتنى إليها قائلة:

ــ ألست أخًا لإسماعيل؟!

ــ إسماعيل يأتى بكل حبايبه وإخوانه نشتغل ونتسلى.

هل تجاوزت «لوزا» السادسة عشرة من عمرها؟ لم يعد وجهها طفلاً، أنثى جميلة تفوح بالعطر وتبوح بالرغبة. تتكلم وهى تمط شفتها السفلى:

ــ هذه سيارتى.. والعشة عشتى

نفثت ضيقًا وقالت:

ــ والفلوس فلوسى.

بصت فى الساعة، لحظتها تقدم الصبى ووضع أمامها فنجان قهوة، والفنجان، بحلقت فى الفنجان بدهشة، قالت بهدوء بالغ:

ــ ذهب.. فنجان ذهب.. لا يغلى عليك.

ابتمستْ. حكيت لها أننى سأتزوج قريبًا. فبصت لى باستخفاف، ثم تنهدت، وقالت:

ــ هاتها العشة

ضربت بخفة على فخذى، إشارة أننى سأنهض، وقبل أن أهم.. اتعرضت بسرعة، وهى تزغر لى بعينيها.

ــ إسماعيل قال انتظره.

ثم قالت مع آخر رشفة من فنجان القهوة:

ــ من قال لك إن أم فرج أمى؟! ومن قال لك عن السجن؟! كلام فاضى فقط.. حولنا الملابس القديمة لملابس جديدة

أنقذت إسماعيل من الفلس.. هو الحشاش «الخمورجى» وأصبحت سيدة كل شىء. هذه سيارتى والعشة عشتى.. اسهر معنا الليلة.

تلعثمت وشكرتها، فأضافت:

ـ رغم أنك أكبر سنًا منى، لكنك مثل التلامذة.

بعد ساعة زمن جاء إسماعيل مهرولاً، مرهقًا، لكنه أكثر سعادة، لعب بلسانه فى شاربه المندلى.

نهضت واقفًا، أشار برأسه للوراء وهمس:

O.K.

تركتنا لوزا، ودخلت الدكان بسرعة، رأيت صورتها منعكسة فى كل المرايا.

شدنى إسماعيل لمسافة مظلمة بعد الدكان. ثم دس فى يدى أوراقا مالية ملفوفة. سألته بدهشة يشوبها الفرح

ـ الـ ٥٠٠ جنيه؟

قال بجدية وحسم:

لا، ٢٠٠ جنيه.. لك بلا مقابل.

قلت بامتنان:

ـ سأردهم.

قال بغضب وجدية وزهق:

هذه فلوسك.. حقك..

مع السلامة

وتركنى وحدى. فوقفت، والفلوس فى يدى، ولا شىء يسعفنى.

بلا مقابـــل

وضعت المائتى جنيه أمامى.

هل شاركت فى جريمة دون علمى وأخذت بلا مقابل؟

فى آخر زمانى أقبل فلوسًا ملوثة من بشر ملوثين فى ظروف ملوثة.. أنا!! ها أنا وحدى فى حجرتى التى فوق السطح، وأمامى الجنيهات التى أريدها.. لكن.. بلا مقابل؟

إسماعيل، ترك «لوزا» معى بعض الوقت.. ثم!!

كأن الحمى سرت فى جسدى، رأيت كل العيون تحيط بى. لا. كل البشر، هاهم أولاء يلتفون حول بيتنا الذى حلم به أبى بيتنا بديعًا على نهر يكلم من نافذته الأسماك والجنى، والجنيّة ذات النهدين.

آه.. لمن أعترف! وأعترف بماذا؟ بلا مقابل؟! لمن أهمس؟ لمن أبوح ومن يصدق ما لا أفهمه!

رأسى يكاد ينفجر.

ماذا سأفعل بهذه الفلوس؟ ألبس بها ملابس الفرح؟ أم أطعم بها هدى؟ أم أعطى لأمى جنيهات؟! بلا مقابل!! لا.. لابد أن المقابل أكبر مما أظن لقد أسهمت فى عملية ملوثة لصالح إسماعيل.. وأخذت..

جريت ناحية الباب. أغلقته بالمفتاح. مائتا جنيه، فردتها.. سويتها.. لا ينفع أن أطعم نفسًا أو أشترى كتابًا بفلوس ملوثة.

ترى هل كانت «لوزا» مراقبة؟! لا لا.. ليست مراقبة، ما كنا جلسنا أمام الدكان. لكنه. لكنها. كانا يعرفان أننى أقوم بدور هام بلا مقابل.

أطفأت المصباح.

أضأت المصباح. الكتب المرصوصة، و«أنوبيس» والأقلام والقصص المنشورة كلها تحاصرنى. أطل علّى طه حسين ويحى حقى وتشيكوف وتولستوى ونجيب محفوظ وجاك لندن وناظم حاكمت ويوسف إدريس وأراجون. كلهم، كلهم يطلون علّى بفضول ودهشة واستغراب وقلق وأسى،

وأحدهم أدمع. كنت أرتعش كطفل سقط توا فى ماء مثلج، أشعر بسخونة تفتك برأسى مددت يدى إلى المائتى جنيه ومزقتها. مزقتها بسرعة وإصرار.

وارتحت.

فـراق

بعد أن نقلت كتبى وأروراقى من حجرتى التى فوق السطح إلى تلك الشقة الضيقة المظلمة ذات التيار الكهربى الضعيف والتى سأتزوج فيها شعرت بألم أقعدنى بعض الأيام.

ـ سأجعل شقتك مثل عروسة.

هكذا قال عاطف، وكان معتليًا سلمًا خشبيًا ينظف النجفة التى أهداها لى «عمر». رتب المطبخ، ولمع الأكواب وحذرنى من استخدامها قبل ليلة الزفاف، وعرض علّى صورة لفتاة عاريةً مثيرة رفضت أن أعلقها، ولمع الصالون المذهب «روميو وجوليت»، وأشرف بنفسه على كل ركن، ثم بالمكنسة راح ينظف الحيطان، وكان يغنى طول الوقت:

«هلا يا واسع
هيلا هيلا
مركبك واسع»
وأنا أضاحكه:

ـ يا سلام يا فيروز.

فرحتنى طيبته، كان بين حين وآخر يخلع نظارته ويلمعها، وكان يحكى لى عن مغامراته فى معهد بورسعيد، مغامراته مع الطالبات والتى لم تحدث مثل حكايات منصور، كنت أسمعه، بل واستفسر عن بعض النقاط حتى لا أفسد عليه خياله الجميل.

بعد أن نقلت كتبى وأوراقى من حجرتى التى فوق السطح فهمت كل معانى قصائد الأطلال فى شعرنا العربى. ذات ليلة لم أجد كتابًا أقرأ فيه؛ فنزلت والشوارع يبللها المطر، وفى الحارة التى بها شقتى الضيقة التى سأتزوج فيها برك من مياه ووحل من طين وضوء خافت من أعمدة متباعدة. غصت بحذائى فى الطين.

بصعوبة أمسكت بجدران البيوت وتخطيت كلابًا منكمشة بجوار الجدران. وفتحت باب البيت الذى به الشقة الكائنة فى الدور الأرضى

بصعوبة. فى الداخل وفى الضوء الخافت اتجهت مباشرة لكوم الكتب وسحبت أى كتاب وخرجت.

وصلتنى رسالة من عبده، وبطاقة تهنئة من فريد، ورسالة من منصور، بينما كنت أعلم أن محمدًا سيتزوج هو الآخر فى نفس الأيام تقريبًا. محمد تردد علىّ فى الأيام الأخيرة، لم تسعنى الفرحة لعودته، وكان قد استرد حيويته وحبه للعالم، بل أصبح أكثر إنسانية منا جميعًا. جاء إلى حجرتى مع بنت جميلة ورشيقة وفى عينيها ذكاء قدمها لى:

ـ روان.. خطيبتى..

وهى القاهرية كانت حبوبة لحد بعيد، حدثت بيننا ألفة من اللحظة الأولى، وتحول محمد إلى طفل جميل أخذ يسترد أصحابه واحدًا وراء الآخر. وعدتهما أن أزورهما مع هدى عقب الزفاف مباشرة. فرحت «روان» وشعرت أن محمدًا أهدانى صديقة غالية، واعتذر محمد لأن ظروفه لن تسمح بحضور الفرح.

كنت أشعر ببرودة الشقة الضيقة فأجرى إلى حجرتى التى فوق السطح فأشعر بالغربة بدون كتبى وأصحابى. أنا أيضًا لم أدع احدًا لزفافى. كانت أمى أكثرنا فرحًا وتوترًا. وأنا ألملم كتبى واوراقى دخلت هى وإفراج الحجرة، وأغلقت خلفها الباب.

ـ نساعدك

ـ شكرًا يا أمى.

زحفت على ركبتها ولفت حول كوم الكتب والأوراق، لمت كل الأوراق المكتوبة على الآلة الكاتبة والأوراق المنسوخة بخطوط أياد بوضوح وإتقان، تلك الأوراق التى كنا نهربها عند التوتر الأمنى وعند الاعتقالات الجديدة، والمداهمات المتعددة، شدت الأوراق بيديها، لمتها فى حضنها وهى تقول:

ـ اترك الورق عندى!

ولما أبديت دهشتى أفهمتنى أنها تريد أن أعيش فى سلام ولو لبعض الوقت، وأن الورق حين يكون بحوزتها سوف تدفسه فى دولابها ولن يراه مخلوق. حاولت أن أمسك به؛ فشدته منى:

ـــ فرح أمك.

ثم همست وهى تبص لإفراج:

ـــ والذى تريده من الورق

تعال اقرأه.

طبطبت عليها

ـــ البدلة.

هكذا هتف زوج أختى فى فرح وهو يطير فى الهوا ء قماشًا بنى اللون من الصوف الثقيل. واستغربت أننى سأرتدى بدلة كاملة. اندهش زوج أختى أكثر لتصورى متسائلاً كيف ستحضر الزفاف إذن؟!

خرجنا معًا للشرفة وقلت له أننى فى غاية الحزن لتركى هذا المكان. رد على:

ـــ هذا ما تقوله الآن..

بعد ذلك سيكون لك عالمك.

أمسكت بحافة الشرفة بيدين مشدودتين.

أى عالم! وأنا الذى عشت عالمى هذا حلمًا بحلم؟ ها أنا أرى النهر يجرى أمامى صافيًا رائقًا، على إحدى ضفتيه بيت أبى وعلى الضفة الأخرى غيطان غيطان وغيطان، فى النهر تمضى مركب ببطء تحمل حلم طفل تداعبه طيور بيضاء وزهور «بنسيانًا» حمراء فيرى بنفسه الأسماك تضرب فى المياه والعصافير تنام على الأشجار. وكنت لحظتها أراه: الجنى الذى لم يره سوى أبى. أنا الآن أراه مقعيًا على شجرة النبق يبص لى. لأعلى ولا ينبس. وهو يعرف أننى الوحيد بعد أبى الذى تأكد من وجوده بتلك

الحكايات النبيلة التى فعلها مع أبى. لكننى حين سألته ماذا أفعل يا جن؟ لم يتكلم ولم يهرب كما كان يفعل مع أبى إنما أخذ يلوك حبات النبق يتلذذ مبالغ فيه. ثم نمت أمامى البيوت طوبة فطوبة وكثر العيال وضاق الطريق واختفت من الغيطان غيطان، وهربت من العصافير عصافير، واختفت من الألوان ألوان، وضاعت من روحى بهجتها.

أخذت قماش البدلة الصوف البنى، لففته حول جسدى، شعرت بدفء يتخللنى فى هذا النوفمبر البارد.

كنت فرحانًا بهدى الدقيقة الجميلة، بقبلتها الدافئة الرقيقة العميقة، وتبادل الحب معها فى البيت والشارع والحديقة. فى الحديقة العامة الفقيرة بحشائشها وعشبها، وكراسيها المصبوبة من أسمنت وحديد. كان عم «عبد الله» يرمى الخرطوم من يده، ويستقبلنا بسعادة لا أعرف من الذى أضفاها على الآخر، فقد صرنا أصحابًا أنا وهدى وعم عبد الله، كنا نجلس فى ظل شجرة وسرعان ما يتحول الظل إلى بيت ونسمة وبراح، ويأتى لنا عم عبد الله بالسندويتشات والشاى والحاجة الباردة وذات مرة فى أيام الصيف قدم لنا عنبًا هدية. وكان يلف حولنا بالخرطوم ليصنع بركة من المياه تعزلنا عن العالم وتعزل الصبيان والأطفال عنا. ولما قبلتنى تحت الشجرة التى فى الحديقة العامة قمنا وجرينا وقفزنا بركة المياه، وطرنا كأطفال ونحن نضحك ونجرى ولم نحاسب عم عبد الله على الشاى يومها. قلت سأتزوجها حتى ولو تحت بئر سلم.

فتح الباب بهدوء بالغ ومد رأسه تسبقه ابتسامة واسعة جمع فيها حب العالم كله ليقدمه لى فى ذلك الأصيل. هتفت بفرح:

ـــ مسعد!

ثم مد يده من فتحة الباب ممسكة بربطة عنق على أحدث موضة، قال مثل طفل يداعب طفلاً:

ـــ كرافته.

شعرت بضيق وهو يعلمنى كيف أربط الكرافته حول عنقى، رجوته

كثيرًا أن يتم الزفاف بدونها، فأنكر ذلك بشدة، وأخذ يصفر لحنًا فرحًا وهو يأكل الشعرية الساخنة المغموسة فى اللبن. كنت ممتنًا للولد مسعد الذى ترك عمله فى القاهرة وجاء ليشرف على: كيف أربط الكرافته وشكل تسريحة شعرى، وكيف التفت يمنة ويسرة لأتبسم للمدعوّين.

سألتنى أختى بدهشة:

ــ وأين فريد ومحمد وأحمد وعبده ومنصور وربيع؟!

هززت رأسى بهدوء وأنا أردد:

ــ لا أحد يعرف الميعاد.. لا أحد يعرف.

سألت أمى:

ــ لماذا يا جابر؟

وسأل أبى:

ــ وأعمامك فى القاهرة؟! وخالتك فى الإسكندرية؟! وأهلك هنا فى كل غيط.

تمتمت: لن يعرف أحد.

قالت لى هدى: وليس هناك أهمية لبطاقات الدعوة. ولا لتلك الصورة الخاصة بالأستديو. أضفت: سيارة واحدة سيأتى بها منعم ويأخذنا فيها. وسألت: والآخرون. قلت: يعرفون المكان حول حمام السباحة. سألتنى والفرقة؟!

أجبت: لا فرقة ولا رقص ولا عوالم. المدعوون يجلسون حولنا ونتبادل الفرح. أحلم بالهدوء يا هدى!

أخذ مسعد ينقر بأطراف أصابعه على التربيزة وهو يغنى:

«حلوانى هات لى ملبس

حلوانى هات لى ملبس

علشانك أفرح وألبس

يا حلوانى»

ابتسمت.. سألنى:

ــ حلوة؟!

هززت رأسى موافقًا:

ــ طبعًا.

قام، وقال، مقلدًا الأداء الكلاسيكى فى التمثيل:

ــ إذن يا جابر سوف يحيى زفافك فرقة سيد درويش.

ها هى ذى الحجرة خالية. ليس سوى سرير، والصور لم أستطع نزعها من فوق الجدار.

«جيفارا» شحبت ابتسامته أم يخيل لى. وسيجاره كاد يختفى فيما «الكاب» ما زال أسود تتألق فيه نجمة مجهولة. والبنت النوبية هجت ألوانها. غير أن الولد العارى فوق الحصان الأحمر الذى يسبح ابتسم ابتسامة واسعة وغمز لى بعينه، فرجعت للخلف، والتمعت الحروف بكل الأشعار المكتوبة والتى لم تفقد بهاءها بعد.

وكانت الشرفة مفتوحة فتذكرت لوركا وإيلوار و.. لمس إصبع ظهرى فتلفت مذعورًا. كان عطية وكان يدمع ويمسح دموعه بكمه كطفل. وسألنى:

ــ هل.. لابد.. أن.. تتزوج؟

كانت الحجرة خالية، وكنت جالسًا فى وسطها على كرسى أسود بارد حين خبط أحدهم على الباب خبطات سريعة ذات إيقاع راقص. قلت مازحًا:

ــ لا تدخل يا سيدى.

فدخل عبد العزيز يتقافز مثل راقص تحطيب وخلفه كانت صديقته «سمية» التى رفعت فى وجهى زهرة حمراء، وتهللت فرحًا، احتضننى

عبد العزيز وبارك لى، وحين رأى الحجرة على حالها قفز عاليًا قائلاً:

ــ تسقط الحجرات التى فوق السطح..

شد الكرسى الخشبى الأسود وأخذ يطبل عليه «وسمية» تصفق فى إيقاع راقص، ثم ترك الكرسى وأخذ يرقص أمام «سمية» فأخذت «سمية» ترقص أيضًا وأنا أصفق. كانا يرقصان بحيوية وشباب، يلفان حول بعضهما، يرقصان بعنف وفرح، وأنا أصفق، أمسك عبد العزيز بيديها، وأخذا يلفان كنحلتين على طنين صاخب، ثم وقعت «سمية» على صدره، لفها بذراعيه. تركتهما. وقفت فى الشرفة، أنظر فى عين الشمس الحمراء، ولا أستطيع أن أتحكم فى عواطفى الجياشة تجاه حجرتى التى سأفارقها. نزلت دمعة، مسحتها بظهر يدى، ودخلت الحجرة وكان عبد العزيز مع «سمية» يرقصان ببطء بالغ والزهرة الحمراء فوق السرير.

كانت تمطر يوم الزفاف. السحب تراوغ الشمس، والدفء يحط فى قلبى حينًا ثم يتركنى باردًا أحيانًا كنت مخنوقًا بالكرافتة، وأجلس على الكرسى الأسود بحرص حتى أحافظ على بدلتى الجديدة، دخلت علّى «علا» ابنة أخى مرتدية فستانًا أبيض مثل فستان العرائس، مدت يدها الصغيرة الرقيقة وهى تقول:

ــ بنا

أمسكت يدها الرقيقة، ونهضت من مكانى. ألقيت نظرة أخيرة على الحجرة الباردة الخالية. أغلقت الباب بسرعة ثم أدرت المفتاح ببطء مرتين، وخلعته برفق. رأيت أمى أمامى وكانت عيناها حمراوين. وأنفها أحمر من بكاء لم أره. تركت يد «علا»، وضعت المفتاح فى يد أمى وأطبقت أصابعها عليه، خيل لى أنها تقبض على المفتاح بقوة وألم وحنان. نزلت درجات السلم تاركًا الحجرة وأمى خلف ظهرى.

المحلة الكبرى
٢٠٠٠/٧/٢٧

السيرة الذاتية

** جار النبى الحلو

** قاص وروائى وكاتب للأطفال وكاتب سيناريو.

** مواليد ١٩٤٧/١/٢٩ المحلة الكبرى ـ غربية.

** صدر للكاتب:

- القبيح والوردة ـ قصص قصيرة ـ دار شهدى ـ ١٩٨٤.
- طعم القرنفل ـ قصص قصيرة الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة أولى ١٩٨٦، طبعة ثانية ـ مكتبة الأسرة ـ ٢٠٠٠.
- الحدوتة فى الشمس ـ قصص قصيرة ـ دار الغد ـ ١٩٩٠.
- طائر فضى ـ قصص قصيرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة أولى ١٩٩٣، طبعة ثانية – مكتبة الأسرة ٢٠٠١.
- حلم على نهر ـ رواية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة أولى ١٩٩٣، طبعة ثانية ـ مكتبة الأسرة ١٩٩٩.
- قمع الهوى ـ قصص ـ دار ومطابع المستقبل ١٩٩٤.
- حكايات جار النبى الحلوـ حكايات ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٧.
- حجرة فوق سطح ـ رواية ـ المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩.

** كتب الأطفال:

- محاكمة فى حديقة الحيوان ـ رواية ـ أبو ظبى ـ ١٩٩٢.
- قط سيامى جميل ـ قصص ـ كتاب قطر الندى ـ ١٩٩٦.
- دراما تليفزيونية للأطفال.
- حصلت على جوائز ذهبية وفضية وبرونزية فى مهرجانات الإذاعة والتليفزيون.

*** حـــاز

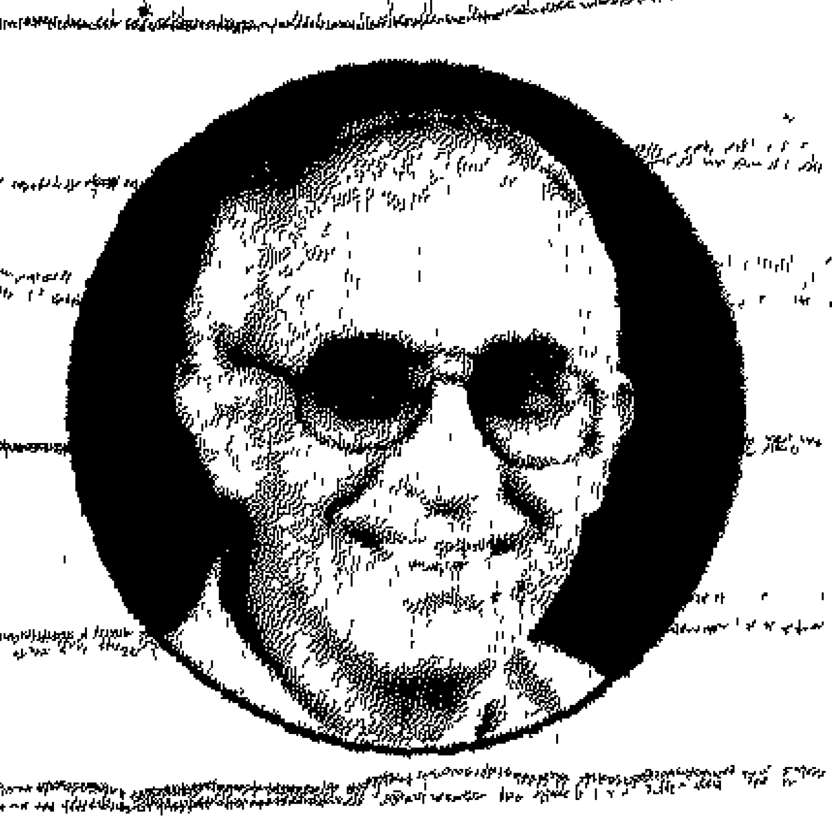
- الميدالية الذهبية وشهادة تقدير من مهرجان الإذاعـة والتليفزيـون ١٩٩٦ عن مسلسل حكايات منسية للأطفال.
- جائزة التفوق من الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٠.
- تكريم ودرع محافظة الغربية ٢٠٠١.
- تكريم شركة صوت القاهرة و «اتحاد الإذاعة والتليفزيون» لحصول مسلسل الجبرتى «قصة وسيناريو وحوار للأطفال «علـى الجـائزة الذهبية».
- تكريم جمعية المسرحيين ـ دولة الإمارات العربية المتحدة.
- «مهرجان الشارقة المسرحى» ١٩٩٧.
- شهادة تقدير من السيدة سوزان مبارك للأداء المتميز فى دعم ثقافة الطفل ١٩٩٧.
- شهادة تقدير من الهيئة العامة لقصور الثقافة (الإسكندرية) ١٩٩٩.

الفهرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٣٢٢٤ / ٢٠٠٣

هذا الكاتب



جار النبى الحلو

- قاص وروائى وكاتب للأطفال وكاتب سيناريو.
- مواليد ٢٩/١/١٩٤٧ المحلة الكبرى – غربية.
- صدر للكاتب :

القبيح والوردة – قصص قصيرة – دار شهدى ١٩٨٤

طعم القرنفل – قصص قصيرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ط (١) ١٩٨٦ ، طبعة ثانية – مكتبة الأسرة – ٢٠٠٠ .

الحدوتة فى الشمس – قصص قصيرة – دار الغد – ١٩٩٠ .

طائر فضى – قصص قصيرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ط (١) ١٩٩١ ، طبعة ثانية – مكتبة الأسرة ٢٠٠١ .

حلم على نهر – رواية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط (١) ١٩٩٣ – طبعة ثانية – مكتبة الأسرة ١٩٩٩ .

قمر الهوى – قصص – دار مطابع المستقبل ١٩٩٤ .

حكايات جار النبى الحلو – حكايات – الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٧ .

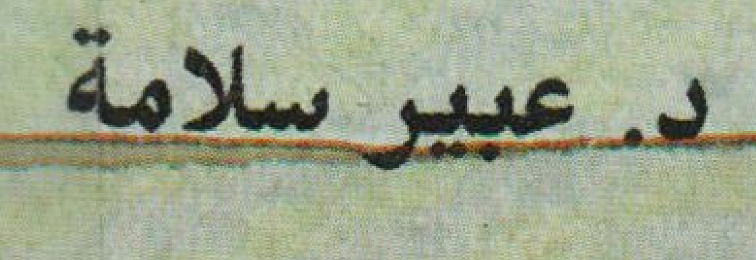
حجرة فوق سطح – رواية – المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩ .

- كتب الأطفال :

محاكمة فى حديقة الحيوان – رواية – أبو ظبى – ١٩٩٢ .

قط سيامى جميل – قصص – كتاب قطر الندى – ١٩٩٦ .

الرواية عند جار النبى الحلو لغة وجود يمارس بها حواراً مختلفاً مع الآخرين. يُنطق العالم وينطق فيه مؤسساً وجوده الواعى أو تاريخه. الرواية عنده تدفعنا برفق إلى ما قبل الرواية. حيث يوجد تركيبه النفسى. والبناء الاجتماعى الذى يضمه. والكيان الحضارى الذى ينتمى إليه. زائدين جميعاً فى مضمونها. منتشرين فى شبكتها الواسعة. كروح خفية تتحدى الزمن بكتابة مفارقة لما فى مجموعاته القصصية. لكن الخبرة واحدة. والقيمة هى هى. ففى الجميع تزدهر حصيلة وعى جار النبى الحلو. وتجربته الإنسانية المتميزة.



د. عبير سلامة